

الطبعة الأولى
١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

دار اللواء
المملكة العربية السعوديـــة - الرياض - شارع الملك فيصل
هاتف : ٢٨٠٨٤ - ص. ب : ٢٨٥٦ - برقياً : نشردار

من قضايا القرآن

الكتاب الثاني

مشيئة الله .. ومشيئة العباد

تأليف

عبد الكريم الخطيب

منشورات

دار اللواء للنشر والتوزيع

الرياض





تقـديم

— ١ —

الإنسان هو خليفة الله على هذا الكوكب الأرضي ، فهو — والحال كذلك — سيد لكلّ ما على هذا الكوكب من عوالم المخلوقات ، من حيوان ، ونبات وجماد .. حيث لا تكون الخلافة إلا بسلطان ، ولا يتم سلطان إلا مع قوة قادرة ، متحكمة متصرفة ..

والقوة التي جعلها الله بين يدي هذا الإنسان الذي أقامه بهذا المقام ، ليست في نباته الجسدي ، وإلا فهناك من حيوانات الأرض ما هو أقوى منه قوة ، وأشد بطشاً . وإنما قوة الانسان فيما وهبه الله تعالى من عقل ، وما يحمل هذا العقل من قوى الإدراك والتفكير ، والتدبير .. فهو بهذا العقل المدرك المفكر المدبر ، يستطيع — بل وقد استطاع فعلاً أن يقيم له سلطاناً متمكناً على هذه الأرض — وأن يسخر كثيراً من قواها الظاهرة والباطنة ، وأن يتخذ منها أدوات عاملةً بأمره ، منقادة لمشيئته .. فحلّق بالطائرات في الهواء ، واتخذ المراكب يجتاز بها الفضاء إلى الكواكب

والأقمار .. ثم هو لا يزال كل يوم يكشف سراً من أسرار الكون ، يزيد به تمكيناً لسلطانه ، وامتداداً لخلافته ..

وفي مسيرة الإنسان مع الزمن ، وفي احتكاكه بالحياة ، يصادف كثيراً من العقبات التي تقف في طريقه ، ثم لا يثنيه ذلك عن الاشتباك مع هذه العقبات في صراع مرير متصل ، فيخفق حيناً ، وينجح أحياناً .. ثم لا يحمله الإخفاق على اليأس والاستسلام ، ولا يقعد به النجاح عند أية غاية يبلغها .. بل هو ماض في سبيله يكسب كلّ يوم معركة ، ويضيف كلّ يوم جديداً من المغانم والأسلاب .. وهكذا تمضي الحياة بالانسان في هذا الصراع المتصل ، ما دام للإنسانية وجود على هذه الأرض .

— ٢ —

وليست خلافة الإنسان على هذه الأرض ، إلا ابتلاء وامتحاناً له ، وإلا إعداد لحياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا .. حيث يلقى جزاءه الأوفى ، لما عمل في دنياه من خير أو شر ، فيجازى بالخير جنّةً ونعيماً ، وحياةً طيبة خالدة في رضوان الله .. ويجازى بالشر ، نكالاً وعذاباً في نار جهنم ، لا يموت فيها ، ولا يحيا ..

فلو أن الإنسان كان للحياة الدنيا وحدها ، ثم ينتهي دوره فيها بعد أيامه القليلة التي يحياها على ظهر هذه الأرض ثم يضمه القبر ، ويحتويه التراب — لو كان ذلك كذلك ، لكان الحيوان أسعد حظاً منه ، لأنه لم يعرف ما عرف الإنسان من آلام وأحزان ، ولم يستشعر مرارة الموت الذي يستشعره الانسان في كل لحظة من لحظات عمره ...

ومن هنا كانت الحياة بعد الموت أملاً يراود أحلام الإنسانية منذ طفولتها الأولى ، ومن قبل أن تأتي الرسالات السماوية بتقريرها ، وتوكيدها لهذه الحقيقة من الحياة بعد الموت .. فرأينا الإنسانية البدائية تحتفل بموتاها ،

وتطوف بقبورها ، تخاطبها ، وتناجي الغائبين تحت ترابها .. بل ورأينا عند قدماء المصريين ــ مثلاً ــ صورة مجسدة للحياة الآخرة ، من بعث وحساب ، وجزاء .. ورأيناهم يعملون على حفظ جثث موتاهم ويضعون في مقابرهم ألواناً من الطعام ، حتى إذا ردت إلى الميّت روحه وجدت الجسم الذي خرجت منه سليماً ، فتعود إليه الحياة ، ويجد الطعام حاضراً بين يديه ، كما يجد الكتاب الذي يُدافع به عن نفسه في موقف الحساب كي تبرأ ساحته ، وينجو من العقاب ..

ولا شك أن هذه تصورات دخل عليها كثير من الخلط ، والضلال ، ولكنها تحمل دلالة واضحة على الإيمان بالحياة الآخرة ، وبالبعث بعد الموت ، وبالحساب والجزاء .. وقد جاءت رسالات الله على يد رسله ، مقررة لهذه الحقيقة ، مؤكدة لها ، داعية إلى الإيمان بالبعث ، والحساب ، والجزاء ، والجنة والنار .

ــ ٣ ــ

ولكن ما شأن هذا كله بهذا الموضوع الذي نعالجه وهو : « مشيئة الله ، ومشيئة العباد » ؟

ونقول : لولا أن تصور الحياة الآخرة واقع في مجال الفكر عند المؤمنين بالله ، وغير المؤمنين ، على اختلاف هذا التصور قوة وضعفاً ، وقُرْباً من الحق ، وبعداً عنه ــ لولا هذا التصور لما أقام الإنسان وزْناً لحياته الدنيا ، ولقطع أيام حياته كما يقطعها الحيوان ، ولكنه حين يصل حياته الدنيا بحياة أخرى بعد الموت ، فإنه تلح عليه أسئلة لا حصر لها ، عن طبيعة تلك الحياة ، وهل هي على شبه بالحياة الدنيا ، أم مفارقة لها ؟ وهل هنالك سعي وعمل ؟ وغنى وفقر ؟ وسعادة وشقاء ؟ وخلود أو موت وبعث ، ثم موت وبعث .. وهكذا ؟

أما المؤمنون بالله ، وباليوم الآخر ، فقد وجدوا الجواب على كل ما يتوارد على خواطرهم من أسئلة عن الحياة الآخرة ، وعن الحساب والجزاء ، والجنة والنار .

وهنا تعرض قضية القدر ، وموقف الانسان منه ، وهل له منازعة في هذا القدر ، أو مغالبة له ؟ وهل للإنسان مشيئة مع مشيئة الله ؟

وإذا كان للإنسان مشيئة ــ فما حدودها ؟ وما أثرها في مشيئة الله ؟ وإذا لم يكن له مشيئة مع مشيئة ، فلم يحاسب على ما فعل ؟ ولم يجازى بالخير أو الشرّ ، وهو غير ذي إرادة أو مشيئة فيما فعل ؟

وينتهي الموقف كله عند هذا السؤال : هل الإنسان مسيّر أو مخيّر؟

لقد تنازع الناس أمرهم بينهم في الإجابة على هذا السؤال .. حتى لقد كانوا في ذلك طرائق شتى ، وفرقاً متنازعة يكفّر بعضها بعضاً ..

وهذا البحث هو تصوير لمقولات القائلين بالجبر أو الاختيار ، أو الواقفين بالإنسان في منطقة حرام بين الجبر والاختيار .. ثم هو بعد هذا تقرير لموقف الجماعة الإسلامية من هذه القضية .. التي تشغل كل ذي عقل ، وتخطر في قلب كل ذي دين « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

* * *

المبحث الأول

الشّيطان وفتنة الإنسان

في المنازعة في القضاء والقدر

أول ما يطرق الشيطان به الإنسان من بواعث الفتنة في دينه — والعياذ بالله — هو أن يقحم عقله في مجال الأمور الغيبية ، التي لا سبيل للعقل إليها ، والتعرف على كنهها إذ كانت مما لا تخضع للحواس ، ولا تستجيب لاختيارها .. والعقل إنما يستمد معارفه عن طريق الحواس ، وما تجلبه من عالم المحسات ، ومن هذه المعارف التي تنقلها إليه الحواس من العالم المشهود ، تتشكل تصوراته ، وخيالاته ، وتتولد المعاني والأفكار من تلك العملية العقلية التي هي أشبه بالعملية الكيمائية ، في خلط المواد ، ومزجها ، وفي تركيبها وتحليلها ، حيث تتفاعل المواد ، وتتزاوج العناصر ، ويخرج من هذا التفاعل والتزاوج شيء جديد ، مختلف تماماً عن جميع العناصر التي شاركت في تكوينه ، وإن كان أصله راجعاً إليها .

لهذا ، فإنه حين يدخل العقل في دائرة الغيب المحض المطلق ، الذي هو بمنقطع عن معطيات المشاهدة المحسة ، فإنه يقع في متاهات لا مخرج له منها ، إلا أن يعود من قريب إلى أرض الواقع الذي يعيش فيه ..

وإذا كان الله تعالى ، قد منح الإنسانَ هذا العقل ، الذي من شأنه أن ينتقل من المشهود ليستدل به على غير المشهود ، كما يستدل على المؤثر ، بالأثر ، فقد دعا سبحانه أصحابَ القول إلى أن ينظروا في عالم الموجودات في الأرض وفي السماء ، وأن يتدبروا ما في كل موجود منها ، ابتداءً من الذَّرة إلى المجرة ، وإنهم إن يفعلوا هذا استجابةً لوظيفة العقل . وطلباً لغذائه من العلم والمعرفة—إنهم إن يفعلوا هذا علموا أن هذا الوجود في إحكام صنعته ، ودقة نظامه ، وخضوعه لسنن يجري عليها ، محكوم بحكمة خالق عليم ،قدير ، « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ،ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون » (يس : ٤٠) — إذ لا بد له من صانع عالم ، حكيم قادر ، متفرد بالحق والأمر : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافّات ويقبضن ، ما يمسكهن إلا الرحمن ، إنه بكل شيء بصير » « الملك : ١٩ » ..

ذلكم هو الله رب العالمين ، وذلكم هو دليل العقل عليه من آياته سبحانه ، المبثوثة في كل شيء خلقه : « الذي خلق سبع سماوات طِباقاً ما ترى في خلْقِ الرَّحمن من تفاوت ، فارجع البصر ، هلْ ترى من فُطور ، ثم ارجع البصرَ كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئاً ، وهو حسير » (الملك : ٣ — ٤) ...

وفي كل شيء له آيـــــة تدل على أنه الواحد

هذا ما يقضي به العقل عند أية نظرة ينظر بها إلى هذا الوجود ، دون أن تكون هناك رسالةٌ من رسل الله ، فإذا كانت هناك رسالة من الله تعالى ، كانت تلك الرسالة رحمة من رحمة الله ، ونوراً من نوره ، يزداد به العقل هدىً ، وتعرفاً إلى الله ، دون مشقة أو معاناة : « نورٌ على نور يهدي الله لنوره من

يشاء » (النور : ٣٥) ..

وذلك هو مقام الإيمان ، الذي يَسْكن قلب المؤمن ، والذي ينبغي ألا يجاوزه إلى البحث عن ذات الله ، وعن صفات الله ، وكيف تعمل هذه الصفات.. وحسب المؤمن بالله أن يعتقد الكمال المُطلق لله سبحانه في ذاته ، وصفاته ، وأن يقيم نفسه على هذا المعتقد ، وهو أنه سبحانه « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » (الشورى : ١١) . فكل ما خطر على عقل الإنسان أو قلبه عن ذات الله ، أو عن صفاته ، فهو مجرد أوهام ووساوس ، ليست من الحقّ في شيء ..

ففي الحديث الصحيح ، عن عائشة — رضي الله عنها — عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول : مَنْ خلقك؟ فيقول : الله تبارك وتعالى ، فيقول : « مَنْ خلق الله ؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فَلْيقل : آمنت بالله ورسوله ، فإن ذلك يَذْهَبْ عنه » أي إن قوله : آمنت بالله ، يطرد عنه ما وسوس به الشيطان له ، من هذا الاسترسال في التساؤلات التي تنتهي به إلى هذا السؤال : من خلق الله ؟

فإذا سد المؤمن على الشيطان هذا الباب فإن الشيطان يفتحه عليه للبحث في ذات الله تعالى وفي صفاته ، فهذا الباب من أضيق الأبواب على الشيطان ، إذ كان الإيمان بالله حقيقة راسخة في قلب المؤمن وفي عقله ، وانه مهما كان للشيطان وسواس هنا ، فانه وسواس ضعيف ، لا يكون أكثر من خاطرة تخطر للمؤمن ، ثم تذهب في الحال دون أن تعقب بعدها أثراً .

وإذ يعجز الشيطان عن أن يدخل على المؤمن من باب الإيمان بذات الله وصفاته ، فإنـه لا ييأس من أن ينـال من إيمان المؤمن شيئاً ولو قليلاً ، ثم لا يزال بهذا الشيء يدق به على هذا الباب حتى يفتح فيه ثغرات يمد منها خرطومه على قلب المؤمن ، فينفث فيه نفثات تثير دُخاناً يقع على مرآة القلب حتى يعلوها الصدأ ، وتُشَوّه على صفحتها حقائق الأشياء التي تقع عليها ..

إن الشيطان إذا سُدَّ في وجهه الباب الذي ينفذ منه إلى إيمان المؤمن بذات الله سبحانه وبصفاته إيماناً غيبياً ، بلا كيف ولا كم ، وبلا تشبيه ولا تمثيل – فانه يظل يدور حول هذا الباب لا ليدخله ، ولكن ليغري من بداخله بالحديث إليه ، فاذا أفلح في هذا الكيد فتح هو للمؤمن أكثر من باب للجدل في أمور تبدو ، كأنها مما ينبغي للعقل أن ينظر فيه ، ويتعرف إلى موقع الحكمة منه ..

وباب القضاء والقدر ، هو أوسع الأبواب التي يفتحها الشيطان ، وأكثرها فتنة وإغراء للإنسان ، حيث يبدو أنه من الطبيعي أن تدور هذه التساؤلات في خاطر الإنسان ، وتتردد على لسانه ، وتنزل منزلة المحاورة بينه وبين الآخرين ..

فمن إيمان المؤمن بالله أنه سيُبْعَثُ بعد الموت ، ثم يُحاسب بين يدي الله على كل ما عمل من خير أو شر ، ثم يَلْقى جزاءه على عمله، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر : « فريق في الجنة وفريق في السعير » (الشورى : ٧).

وقد كان التنازع في القدر أول باب فتنة فتحه الشيطان على المسلمين منذ عرض هذا الأمر في معرض العقل ، وأصبح قضيته من قضايا الكلام ، على يد المعتزلة وما تفرق فيهم من فرق ، بين قَدَرية ، وجَبَرية ، ومرجئة .. إلى عشرات من الفرق . طرفها الأول يقول بالجبر المُطلق ، أي جبر الإنسان على كل أعماله خيرها وشرها ، دون أن يكون له أي اختيار في أي عمل ، وطرفها الأخير ، يُقرِّر نقيض هذا ، وهو أن الانسان حر حرية مطلقة ، فلا سُلطان عليه من خارج ذاته في كل ما يَفعل ، فلا مشيئة لله فيما يفعل العبد ، وهذا ما يقضي به عدل الله في محاسبة العبد وجزائه ، كما يقول هؤلاء الذين يسمّون أنفسهم أصحاب مذهب العدل .

وانه منذ فتح هذا الباب على المسلمين وجد الشيطان له مكاناً يطل منه

عليهم ، ويغري الكثير منهم بالتخفف من مشاعر التأثم عند مقارفة الآثام ، حتى الكبائر منها ، بدعوى أن هذا من قدر الله تعالى عليه ، وقضائه فيه ! !
وهذا حق أريد به باطل ، والحق في هذا ، أن كل ما يفعله الإنسان هو من قضاء الله وقدره إذ لا شيء يخرج عن سلطان الله ، وتقدير الله تعالى له ...
وأما الباطل في هذا فهو أن للإنسان شيئاً من المشيئة والاختيار فيما يأتي أو يدع من أفعال ، حيث يأتي ما يأتي من أفعال دون أن يجد من نفسه قوة قاهرة له فيما يفعل أو يترك ، وإن كان في واقع الأمر هو منقاد لمشيئة الله تعالى ، صائر إلى ما قدره الله سبحانه له .

فمشيئة الإنسان واقعة محسوسة ، يجدها كل إنسان فيما تنزع إليه نفسه ، إزاء كل أمر من فعل أو ترك ، وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : « وقلْ الحقُّ من ربكم فمَن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » (الكهف : ٢٩) وقوله سبحانه : « ان هو إلا ذكر للعالمين ، لِمَنْ شاء منكم أن يستقيم » (التكوير : ٢٧ — ٢٨) ..

ومشيئة الله تعالى مشيئة عامة شاملة ، تَدْخل في سلطانها المطلق كل مشيئة ، كما يقول تعالى : « إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » (التكوير : ٢٧ — ٢٩) ..
فللانسان مشيئته ، التي تبدو كأنها مستقلة مطاقة ولكنها — في واقع الأمر — داخلة تحت مشيئة الله ، مقيدة بما شاء الله وبهذا القدر الذي عند الانسان من المشيئة يكون حسابه وجزاؤه ...

والشيطان يجد في هذه المشيئة المطلقة المقيدة في وقت معاً — يجد سبيله إلى المؤمنين ، فيلقي بعقولهم عليها ، فيضل من يضل ، وينجو من ينجو ..
والشيطان يخرج من هذه المعركة بأسرى كثيرين ، قد أمرض قلوبهم وفتنهم في دينهم .

وكما أهلك ابليس — وهو أبو الشياطين — كما أهلك إبليس نفسه

بعصيان أمر ربه أن يسجد لآدم ، فانه جعل كل همه أن ينتقم من آدم وذريته ، فكان أن عمل على إغراء آدم حتى عصى ربه ، وأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الاقتراب منها ، ثم تسلط هو وذريته على أبناء آدم ليحملوهم على عصيان ربهم ، وعلى الكفر به ، وعبادة الشيطان وأوليائه من دون الله ، وبذلك يرى هذا اللعين أنه وذريته قد ثأر من آدم وذريته ، إذ كان السبب في طرده من رحمة الله ، وصبت اللعنة عليه من الله .

والصورة التي أوقعت ابليس في الضلال ، وألبسته لعنة الله إلى يوم الدين هي الصورة التي اتخذ منها الذرائع التي يوسوس بها هو وذريته لأبناء آدم وبخاصة المؤمنين بالله منهم ..

وقد تشكلت هذه الصورة المنكرة من جملة شبه وقعت في نفس إبليس ، فكانت مهلكة له ..

يقول هذا اللعين :

« إني سلّمت أن الله تعالى ، هو إلهي ، وإله الخلق ، وإنه عالم قادر ، ولا يسأل عن قَدَرِه ومشيئته ، وأنه إذا أراد شيئاً ، فإنما يقول له كن فيكون .. ولكن لي تساؤلات :

الأول : أنه تعالى عَلِمَ قبل خَلْقي أي شيء يصدر عنّي ، ويحصل منّي .. فَلِمَ خَلَقني أوّلاً ؟ وما الحكمة في خَلْقه إياي ثانياً ؟

والثاني : أنه تعالى إذْ خلقني على مُقْتضى إرادته ومشيئته ، فَلِم كلّفني بمعرفته وطاعته ؟ وما الحكمة في التكليف ، وهو لا ينتفع بطاعة ، ولا يتضرر بمعصية ؟

والثالث : أنــه تعالى إذ خَلَقني وكلفني ، فالْتزَمت تَكْليفَه بالمعرفة والطاعة ، فعرفته وأطعت ، فلم كلّفني بطاعة آدم والسّجود له ؟

وما الحكمة في هذا التكليف على الخصوص ، بعد أن لا يزيد ذلك طاعتي ومعرفتي ؟

والرابع : أنه تعالى إذ خلقني وكلفني على الإطلاق ، وكلّفني بهذا التكليف على الخصوص – أي السجود لآدم – فإذا لم أسجد ، فلم لعَنني وأخرجني من الجنة ؟ وما الحكمة في ذلك بعد أن قلتُ : لا أسجد إلا لك ؟

والخامس : أنه تعالى إذ خلقني وكلّفني مُطلَقاً وخصوصاً ، فلمّا لم أُطع لَعَنَنِي وطردني ، فلم طرّقني [1] إلى آدم ، حتى غرّرته بوسوستي ، فأكلَ من الشجرة المنهى عنها ، وأخرجه من الجنة ؟ وما الحكمة في ذلك مع أنه لو منعني من دخول الجنة لاستراح مني آدم وذريته ؟

والسادس : أنه تعالى إذ خلقني وكلّفني عموماً وخصوصاً ، ولعَنَني ، ثم طرّقني إلى آدم ، وكانت الخصومة بيني وبينه ، فلم سلّطني على أولاده ، حتى أراهم من حيث لا يرونني ، وتؤثر فيهم وسوستي ، ولا يُؤثرون هم فيَّ ؟ وما الحكمة في ذلك بعد أن لو خلقهم على الفطرة دون من يحتالهم عنها لعاشوا طائعين طاهرين ، سامعين ، ولكان ذلك أحرى وأليق بالحكمـــة ؟!

والسابع : إذا سلمت بهذا كله ، فلم إذا استمهلته أمهلني ، وقال : « انك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » ، وما الحكمة في ذلك ، مع أنه لو أهلكني في الحال استراح آدم منّي ، وما بقي شر في العالم .. ثم أليس بقاء نظام العالم على الخير خيراً من امتزاجه بالشر ؟ » [2] .

هذه هي مقولات إبليس ، وهي وساوسه التي يوسوس بها إلى الناس ، والتي بها أهلك نفسه ، وحل عليه غضب الله ولعنته ..

---

(١) و (٢) الملل والنحل للشهرستاني : ص : ١٢ ، ١٣ .

وقد ضل هذا اللعين ضلالاً بعيداً في تصوراته تلك ، وعَمِي عن أن يرى الهاوية التي يهوي إليها ..

وانه ليقال لهذا اللعين وذريته : إن تسليمك بأن الله تعالى هو إلهك الحق وأنه الفعال لما يريد ، لا يسأل عما يفعل — ان تسليمك هذا هو ادعاء باطل ؛ لأنك لو كنت صادقاً في هذا ، لاستجبت لأمر الله إذ دعاك إلى السجود لآدم .. أفليس من حق الخالق أن يأمر ، ومن واجب المخلوق أن يطيع ؟ وإذا لم يكن الحال كذلك فما فَضْلُ الخالق على المخلوق ؟

يقول الشهرستاني في :

« فاللعين الأوّل — إبليس — لمّا أن حكّم العقل على من لا يحتكم عليه العقل ، لزمه أن يجري حُكم الخالق في الخلْق ، أو حكم الخلق في الخالق ، والأول غلو ، والثاني تقصير ، فثار من الشبهة الأولى مذاهب الحلولية والتناسخية والمشبّهة والغُلاة من الروافض ، حيث غلَوْا في شخص من الأشخاص حتى وصفوه بصفات ذي الجلال .. وثار من الشبهة الثانية مذاهب القدرية والجبرية والمجسمة ، حيث وصفوه تعالى بصفات المخلوقين ..

فالمعتزلة مشبّهة الأفعال ، والمشبّهة حلولية الصفات ، وكل واحد منهم أعور بأي عينيه شاء »[1] ..

(١) الملل والنحل ، للشهرستاني ، ص : ١٣ .

المبحث الثاني

هَل للإنسَــان إرَادَة ؟

هذا سؤال لا يكاد يتردد أحد من العقلاء في الإجابة عليه (بنعم) فكل إنسان يَعلم مِن نفسه ، ومِن تصرفات النّاس حَوْله أن للإنسان إرادة .. بها يتحرك ويعمل ، وبها يأخذ ويدع .. فالإنسان — فيما يَبْدو له — لَيس مجرَّدَ آلةٍ تتحرك بغير إرادة ذاتية ، أو تتوقف بغير تلك الإرادة .. إنه يريد أن يتحرك فيتحرك ، ويريد أن يعمل فيعمل ، ويريد أن يقف فيقف ، ويتوقف عن العمل فيتوقف — ذلك هو الإنسان في أدنى مراتب النظر إليه ..

ولكن حين يصبح السؤال هكذا :

هل للإنسان إرادة مع إرادة الله ؟

هنا تأخذ المسألة وضعاً آخر ، وتدخل القضية في مجال النزاع والخلاف إنها قضية القضايا .. فهي ليست من القضايا ذات الصِّبْغة (المحلية) كما

يقولون – بين الإنسان والإنسان أو بين الانسان والطبيعة .. ولكنها بين الإنسان وبين الله .. بين العبد والرب .. بين المخلوق والخالق !

وما ظنك بقضية يكون العبد فيها خَصْماً لربه ، أو مُحاجّاً لخالقه ؟ إنها حينئذ تكون قضية شائكة محرجة .. فيها لجاجة وخروج على مقتضى العبودية ، وفيها تطاول وضلال ، وفيها مزالق وعَثَرات ..

نعم .. إن الطريق شائك ، مليء بالمزالق والعثرات .. ولكن هيهات أن يُمْسِك الإنسان نَفْسه عن السّير فيه .. فإن استطاع أن يُمسك قَلَمَه ، أو لسانه فإنه ليس بمستطيع أن يُمسك زِمام خواطره ووَساوسه .. بحالٍ أبـــداً ..

وأمّا والأمر كذلك ، فإنه من الخير للمرء أن يُواجه المُشكلة ، وأن يَقْتحم عليها موطنها ، قبل أن تفجأه على غرة ، وتهجم عليه على حين غفلة ، فتنال منه وتفسد عليه رأيه ، أو تدخل الشّك والوسوسة على عقيدتـــه ..

وأمّا وقد رَضينا أن نُواجه المُشكلة ، ونَقْتحم عليها حماها ، فإنه يجب علينا أن نأخذ لها حِذْرَنا وأسلحتَنا .. شأن من يتهيأ لصراعٍ عنيف ، ويدخل في معركة حاسمة ..

وزادنا في هذه المعركة ، هو إيمانٌ بالله .. إيمان وثيق ، لا تزعزعه الأعاصير العاتية ، ولا تنال منه الأحداث المزلزلة .. وأما سلاحنا عقل يقظ ، وقلب سليم ، ننظر بهما في كتاب الله ، وفي سنة رسول الله ، في حدود ما وهبنا الله من استعداد فطري ، دون التطويح بالعقل في مطارح التيه ، والشرود به في مجال غير مجاله الذي خلق له ، فإننا بذلك نأمن الزلل والعثار ، بعونٍ من الله ، وتوفيق منه .

إننا مؤمنون بالله ، وبحكمه المطلق ، وبمشيئته الغالبة .. وليست رحلتنا

تلك إلا حُلُماً من أحلام اليقظة ، نورد فيها العقل على ارتياد هذا العالم المجهول فيضرب فيه بمجدافه كيف يشاء .. ثم يَصْحُو ، فإذا هو على شاطىء الأمان مؤمناً بالله وبمشيئة الله إيمان عجز وتسليم !

ذلك هو زادي ، وهذا هو سلاحي .. فإن أردت أن تصحبني — أيها الأخ المؤمن — على هذا الطريق ، فخذ من الزاد والسلاح ما أخذت .. وإلا فأنصح لك أن تكون حيث أنت ، ولا تصاحبني .. وحسبك أن تعود أدراجك ونحن على أول الطريق ، وأن تطوي هذه الصفحات ، قبل أن نمضي في هذا الحديث .

أمّا إن كنت قد رضيت صحبتي على ما اشترطت عليك ، فهيا بنا إلى غايتنا ! ولكن مهلاً .. هل اختبرت إيمانك ؟ وهل أيقظت عقلك ، وأخليت قلبك من كل شك ووسواس ؟ لا بأس من أن تعيد النظر .. فإننا — كما قلت لك — لا نزال على الشاطىء ، وقد يكون العود أحمد لك ..

وبعد ، فإن كنت على عزيمة أن تسير معي ، فلي عليك ما اشترطه العبد الصالح على موسى ، عليهما السلام ، اذ قال له : « فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحْدِثَ لك منه ذكراً » (الكهف : ٧٠) .

أنتحرك إذن ؟ وليكن .. وعلى بركة الله .

المبحث الثالث

هل للعبد إرادة مع الله ؟

سنجيب على هذا السؤال بالجوابين المحتملين له .. فنقول : « نعم » مرة ونقول : « لا » .. مرة أخرى .. وننظر .

أولاً : القول بأن للعبد إرادة مع الله

وهذا القول قالت به القدرية من المعتزلة ..

وينبني على هذا القول أمران :

أولاً : أن العبد خالق لأفعاله ، مسئول عنها مسئولية كاملة ..

ثانياً : أن ما يناله العبد من نعيم أو عذاب في الآخرة هو بسبب عمله الحسن ، أو السيء .. هذا ما يقرره القدرية من المعتزلة ، في مذهبهم الذي عرفوا به .

وقد بني هذان الأمران عند القدرية على ما يأتي :

أولاً : أن العبد لو لم يكن خالقاً لأفعاله ، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقها ، وأضافها إلى الانسان ، ثم عذّبه عليها — مع أنه لم يفعلها —

لكان الله ظالماً له ، والظلم نقصان ، لا يليق بالله الموصوف بالكمال المطلق !

« وكيف يفعل الله شيئاً ، ثم يلوم الإنسان عليه ، ويقول له : كيف فعلته ولم فعلته ؟ وهو لم يكن له كيف ، ولا فعل ؟

« إن الله عادل ، وعدله يقضي بأن يحاسب العبد على ما فعل ..

« وإذن ، فأفعال العبد مخلوقة له ، ومحسوبة عليه . . وبهذا يكون مسئولاً عنها محتملاً تبعاتها ، جانياً ثمراتها ، حلوةً كانت أو مرة ..

ثانياً : أوجب القدرية على الله أن يُثيب الطائعين ، كي لا يظلمهم ، فإن الظلم نقصان لا يليق برب الأرباب ..

هذه هي حجة أو حجيج المعتزلة الذين يقولون : إن للعبد إرادة خالقة ، مع ارادة الخالق .. وسوف نرد على هذا القول — إن شاء الله — بعد أن نعرض الرأي المقابل له ..

المبحث الرابع

القول بأن لا إرادة للعبد تخرج عن إرادة الرّب

وأهل السنة ، هم أصحاب هذا القول .. وقد بنوه على أمرين كذلك :

أولاً : أن كمال الإله هو في التفرد بكل شيء .. ونفي القدرة عيب ونقصان .. والكمال يقتضي أن يكون كل شيء خاضعاً لِقُدرة الله ، جارياً على ما تَقْضي به حكمته ومشيئته .. فلو جرى أمر في هذا الوجود على غير إرادة الله ومشيئته لما كان لله تعالى الوصف المطلق بالقدرة ، والارادة ..

وثانياً : أن إثابة المحسن ، ليس لإحسانه وحده ، وإنما ذلك من فضل الله عليه . وتعذيب من يعذبهم الله ، ليس لذنوبهم وحدها ، وإنما ذلك لحكمة يعلمها الله وحسب نظام قدر ، وليس في هذا ظلم .. لأن الظلم إنما ينسب لمن يتصرف في غير ملكه والله سبحانه إنما يتصرف فيما خلق ..

ففي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ ، قال لأصحابه : « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا

إلاّ أن يتغمدني الله برحمته » .. ومعنى هذا أن رحمة الله ، لا عمل الإنسان ، هو الذي يدخله الجنة ، ورحمة الله التي يجود بها على عباده ، هي رهن بمشيئته فيهم ، قال تعالى : « يُدْخل من يشاء في رحمته » (الإنسان : ٣١) .. ويقول سبحانه : « ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون» (الأعراف : ١٥٦) ومعنى هذا أن من يدخلهم الله تعالى في رحمته ، هم أولئك الذين يهديهم إلى الإيمان به ، والاستقامة على طاعته ، وهذا من رحمة الله تعالى بهم ، وإحسانه إليهم .

وأهل السنة — مع هذا — لا ينفون ارادة العبد أصلاً ، كما سنرى بعد ، ولكن يرونها إرادة خاضعة لإرادة الله ، جارية على تقديرها ..

المبحث الخامس

هَل لَيسَ للإنسَانِ إرَادَة مُطلَقًا ؟

وهناك فريق ثالث ــ وهم الجبرية ــ لا يرون للعبد إرادة مطلقاً ، فيقولون إن أفعال الإنسان اضطرارية ، وأن كل ما يفعله لا إرادة له فيه ، وإنما هو أشبه بآلة تعمل بلا وعْيٍ ولا عقل .. وأن المأمورات والمنهيّات ليست موصوفة بالحسن أو القبح ، وإنما هي أوامر ونواهٍ صادرة من جهة عليا ، وعلى الإنسان أن يمتثل من غير أن يفكر في حُسن المأمور به أو قبح المنهيّ عنه .. فالإنسان لا يقدر على شيء ، ولا يُوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مَجْبُور على أفعاله ، لا قُدرة له ولا إرادة ، ولا اختيار ، بل يَخْلُق الله تعالى الأفعال فيه ، كما يخلقها في سائر الكائنات ، وتُنسب إليه الأفعال مَجَازاً كما ننسبها نحن إلى الجمادات ، كما يقال : أثمرت الشجرة ، وجَرَى الماء ، وتحرّك الحجر ، وطَلَعت الشمس ، ولا إرادة للشجرة في أن تثمر ولا مشيئة للماء في أن يجري ، ولا للحجر أن يتحرك ، ولا للشمس في أن تطلع ، وإنما كل ذلك ونحوه خاضع خضوعاً مطلقاً لسنن الله الكونية .

وينبني على هذا عند الجبرية أن الثواب والعقاب جَبْرٌ ، كما أن الأفعال جبر ..

هذا هو مجمل القول في إرادة العبد وإرادة الله ، بين أطراف الخصومة عند جماعات المسلمين .

وأنت ترى بعد الشقّة بينهم .. فبينا يقول الْقَدَرِيّة : « إن العبد خالق لكل أفعاله ، وأن إرادته مُطلقة من كلّ قيد – إذ يقول الجبرية : إن العبد لا يَفْعل شيئاً ، وإنما الله سبحانه هو الذي يَخلق ما يَفعل العبد ، وإن الإنسان والجماد في هذا سواء ، كلاهما مُسَيّر إلى غاية لا يَمْلك من أمره معها شيئاً ..

أما أهل السنة ، فقد ذهبوا بين الفريقين مذهباً وسطاً .. فقالوا بإرادة الله العامة الشاملة ، وقالوا بإرادة العبد المحدودة الواقعة في محيط الإرادة العـــامة ..

وقد دخلت هذا الآراء في مجال الصراع العَقليّ العنيف ، واجتمع على كل رأي أنصار يدافعون عنه ، ويحتجون له .. وكان الفلاسفة والمتكلمون فرسان الحلبة في هذا الصراع ، يصولون ويجولون ، ويحومون حولَ الكتاب والسنة ، يأخذون منهما الحجة على خصومهم ، فَخَلطوا في هذا بين فِطرة الإسلام وفلسفة اليُونان ، وما وصل إليهم من معتقدات فارس والهند وغيرهما .. وكان من هذا أن اتسعت شقة الخلاف بين المتخاصمين ، وانقسمت الفرق المختلفة على نفسها ، فكان لكل فريق مقولات تدور حول الأصل الذي قام عليه الرأي في المذهب .

تفصيل بعد إجمال

ولكي نتعرف إلى وجه الحق في هذه القضية ، يجب أن ننظر في آراء هذه الفرق ، وفي الأدلة التي قدموها بين يدي هذه الآراء ، ثم إن لنا بعد هذا رأينا ، الذي نفقهه من ديننا ، بعيداً عن التعصب المذهبي ، أو التحزب الطائفي ، وخالصاً من كل غرض إلا ابتغاء الحق ، وإلا إقامة العقيدة على

الحق الذي نزل به الكتاب ، وبينه الرسول .. كل هذا في إيجاز شديد ، إذ أننا نعالج قضية شغل بها العقل الإنساني منذ كان ، وإلى أن يخلي مكانه من هذا العالم ، وقد خلّفَ وراءه محصولاً من الآراء والمقولات لا حصر لها .

أولا : آراء القدرية

برز من المعتزلة عدد غير قليل من ذوي اللّسَن والرأي .. قالُوا بالقدر وسُمّوا بالقدرية ، لأنهم يقولون : إن العبد قادر على خَلْقِ أفعاله ، مختاراً غير مضطر ..

وقد استطاعوا بما لهم من فصاحة ومنطق ، أن يُصوروا آراءهم في منطق رياضي وأن يصوغوها في قوالب من الفصاحة والبلاغة ، بما كان لهم من نظر في كتب الفلسفة والمنطق ، وما اطّلعوا عليه من المعتقدات الدينية الوافدة ، مع الداخلين في الإسلام من كل أمة .. فكانت لهم فلسفة ، وكان لهم أدب .. وحسبك أن يكون من رجال هذه الطائفة .. واصل بن عطاء والنظام ، وأبو الهزيل العلاف ، والجاحظ وعبد الجبار ، وابن أبي الحديد ، وجميعهم أئمة في الأدب ، كما أنهم أئمة في الرأي ..

وهذه مقولات لبعض رجالهم

١ ــ رأي واصل بن عطاء :

يقول واصل بن عطاء في تقرير المشيئة المطلقة للانسان : « إن الله تعالى حكيم عادل ، ولا يجوز أن يضاف إليه شر وظلم ، ولا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمر به ، وأن يحكم عليهم بشيء ثم يجازيهم عليه » ..

وهذا الذي يقوله واصل ، حق لا شك فيه .. فالله حكيم عادل ولكن مع حكمة الله وعدله ، تقوم قدرته وإرادته ، والقدرة والإرادة يقضيان بألا يقع في ملكه غير ما يشاء ويريد ..

والسؤال هنا هو : هل الإنسان من القدرة والاستطاعة بحيث يتحكم في الأسباب الخارجة ، التي تُصادم القُوى التي أودعها الله فيه .. من عقل وإرادة ؟

يقول واصل في الرد على هذا السؤال ، أو التساؤل : « فالعبد هو الفاعل للخير والشر ، والإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، وهو المجازى على فعله والرب أقدره على ذلك كله » .

ونقول : إذا كان الله أقدر العبد على كل ما يفعل من خير أو شر ، وإيمان أو كفر ، وطاعة أو معصية — فماذا بقي للعبد إذن ؟ وكيف يضاف إليه كل ما يفعل ، وهو إنما يفعل بالقدرة التي أقدرهُ الله بها على فعل ما يفعل ؛ كيف يتفق هذا مع ذاك ؟

يقول واصل :

« ويستحيل أن يخاطب الله « العبد » « بافعل » وهو لا يمكنه أن يفعل .. ؟

« وهو — أي العبد — يحس من نفسه الاقتدار والفعل .. ومن أنكره فقد أنكر الضرورة » !

ونقول : إن مفهوم هذا القول يقتضي أن يقوم إزاءه قول آخر .. وهو أنه يستحيل أن يخاطب الله العبد بألا تفعل ثم لا يمكنه من ألا يفعل .

وإذن فيكون الوضع الصحيح للمسألة على مقتضى هذا الرأي هو :

اولاً : ان الله يأمر العبد بأن يفعل ، ويمكنـــه من ان يفعل .. وهذا في باب الخير والمعروف ، فيفعل كل ما هو خير ومعروف ..

وثانياً : أن الله ينهي العبد ألا يفعل المنكر ، ويمكنه من ألا يفعله وهذا يشمل المنهيات جميعاً ، فلا يفعل العبد ما هو شر ومنكر أبداً .. وهذا غير واقع .. فما أكثر ما يأتي الإنسان ما نهى الله عنه من فواحش ، ولهذا فرق الله تعالى بين المؤمنين والكافرين والطائعين والعاصين ، فكان لهؤلاء ما أعد لهم من جزاء طيب ، ولأولئك ما توعدهم به من عذاب السعـــير ..

وعلى هذا ، فالعبد إنما يفعل ما يفعل من خير أو شر ، بما أودع الله فيه من قُدرة ، فإذا فعل العبد خيراً فبما أودع الله فيه من قدرة على فعل الخير ، وإذا فعل شراً فبما فيه من قوة لا تستطيع أن تدفع الشر الذي فعلـــه ..

ما ذنب العبد اذن ؟ أهذا يتفق مع العدل الذي يقوم عليه مذهب المعتزلة ؟

ألا ينتهي هذا الرأي إلى القول بالجبر ؟

ثم إذا فعل العبد المنكر بسبب ما أقدره الله تعالى على فعل هـــذا المنكر أفلا يكون هذا الفعل مما رضيه الله ، وأمر به ؟ والله تعالى يقول : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ، قل أمَرَ ربي بالقسط » (سورة الأعراف : ٢٨ ــ ٢٩) .

« ويكاد واصل » يقول هذا .. ولكن يرده عن ذلك ما يرى من عدل الله وحكمته ، فهو يريد أن يدفع من عدل الله تبعة الأعمال السيئة التي

يجازى عليها المسيئون ، كما يدفع عن حكمة الله هذه الشرور التي تقع في محيط الناس .

أترى أن واصلاً كان عادلاً في هذا الحكم ؟ إنه نظر إلى المسألة من جانب واحد .. جانب الإنسان العاجز الضعيف ، وعلق في عنقه كل هذه الشرور والآثام ، التي يأتيها بمطلق إرادته ومشيئته ، ولا يرى لله في هذا إرادة ولا مشيئة !! والله تعالى يقول : « وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله، إن الله كان عليماً حكيماً » (سورة الإنسان : ٣٠) ويقول سبحانه : « كلاّ إنه تذكرة ، فمن شاء ذكره ، وما يذكرون إلاّ أن يشاء الله ، هو أهل للتقوى ، وأهل المغفرة » (سورة المدثر : ٥٤ ــ ٥٦) .

ثانياً : رأي أبي علي الجبائي وابنه أبي هاشم

يقولان في تبرير نسبة الأفعال ــ خيرها وشرها ــ إلى الإنسان : « إن الله تعالى لم يدّخر عن عباده شيئاً يعلم أنه إذا فعله بهم أتوا بالطاعة والتقوى .. من الصلاح والأصلح ، واللطف ، لأنه ــ تعالى ــ قادر ، عالم ، جواد ، حكيم ، لا يضرّه الإعطاء ، ولا ينقص من خزائنه المنح ، ولا يزيد في ملكه الادخار .. ولا يقال : إن الله تعالى يقدر على شيء هو أصلح مما فعله بعبده ، ثم لم يفعله .. والتكاليف كلّها ألطاف ! » .

وواضح أن هذا القول يجعل أفعال العبد كلها مرضية عند الله ، خيرها وشرها ، لأن الله لم يدخر عن عباده شيئاً من الصلاح واللطف ..

وإذن .. فلا خير ولا شر .. فالتكاليف ــ كما يقولان ــ كلها ألطاف ، وما يأتي العبد منها وما يدع ، انما هو غاية ما أعطى الله العبد من قوى ، وليس وراء هذا شيء يمكن أن يمنحه الله العبد غير الذي منح .

ونقول : هل مع هذا يقال : إن العبد حر مختار ، يفعل ما يشاء ؟

نعم : إنه يفعل ما يشاء في حدود هذه الطاقة التي أمده الله بها ، والتي هي كل ما عند الله له .. كما يقولان !

وإذن فلم يحاسب العبد ويعذب على الشر الذي يفعله ، وهو لم يفعل إلا بما مكّن الله له منه ، وأقدره عليه .. ؟ ثم إذا كان الإنسان حرّاً مختاراً فيما يفعل : أتراه يفعل الشر ، ويترك الخير ؟ أتراه يقدم على الانتحار — ويقتل نفسه مثلاً ؟ ثم ألا ترى أن القول بالجبر — لحكمة أرادها الله — أولى في هذا المقام من القول بالحرية المطلقة للانسان ؟ ثم ألا يكون قول بشار أقرب إلى واقع الإنسان من هذا الذي يقوله القدرية ، إذ يقول بشار :

خُلِقْتُ على ما فيَّ غيرَ مُخَيَّـــر
هَوَايَ ، ولو خُيِّرتُ كُنْتُ المُهذَّبا

أريد فلا أُعْطَى ، وأُعْطَى ولم أُرِد
وقَصَّر عِلْمِي أن أنالَ المُغَيَّبـــا

ثالثاً : رأي النظام

يَرَى النظام أن القَدرَ خيرَه وشره مِنّا نحن البشر ، وأن الله تعالى لا يوصف بالقُدرة على الشُرور والمعاصي ، وليست هي مقدرة للبارىء تعالى .. ويرى النظام : « أن الله لا يقدر أن يخلق أكثرَ مِمّا خلقَ بالفعل ، وإلا فمن ذا الذي يستطيع أن يحول بينه تعالى وبين أن يُظْهِر كلّ ما عنده من الجود والجمال ؟ » .

ونقول : كيف يقف شيء أمام قدرة الله ؟ وهل تقع هذه الأمور التي نراها شرّاً إن لم تكن مِن تَقدير الله ؟ وهل يدخل على نظام هذا الملك شيء لا يُريده الله ؟

لقد رَدّ أصحاب « النظام » أنفسهم على هذا ، فقالوا : إن الله قادر

على الشرور والمعاصي ، ولكنه لا يفعلها لأنها قبيحة .

ونقول : إذا كانت تلك الأمور التي يصفونها بأنها قبيحة ، وهي قبيحة فعلاً .. فلم يدعها الله سبحانه تدخل في نظام ملكه الذي أقامه ؟

هذا قول متهافت ، لا يستقيم أوله مع آخره ..

ونستطيع بعد هذا أن نقول : إن أقوال المعتزلة في قدرة الانسان لم تقم على منطق سليم ، ولم تستقم على طريق واضح ..

والله عادل .. ما في ذلك شك .

ومقتضى هذا العدل أن تُجْزَى كل نفس بما كسبت .. فالعبد كاسب لأفعاله ، أي أنها أفعال جرت على يديه ، وبمحض إرادته .. ولكنه مع هذا واقع تحت إرادة الله ، خاضع لمشيئته ، فصحَّ أن تنسب هذه الأفعال — حسنها وقبيحها — إليه ، وأن تُعَدّ من كسبه ، وأن يجازى عليها ، كما يقول سبحانه : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يَعْمل مثقالَ ذَرةٍ شرّاً يره» (سورة الزلزلة : ٧ — ٨) وكما يقول جل شأنه : « ولا تكسبُ كلُّ نفسٍ إلاّ عليها » (سورة الأنعام : ١٦٤) ويقول تبارك اسمه : « ونَبْلُوَكم بالشّرِّ والخير فتنة ، وإلينا ترجعون » (سورة الأنبياء : ٣٥) .

وللنظام رأي في إرادة الله ، وأن معنى الإرادة عنده ليس هو معنى المشيئة ، لأن الإرادة بمعنى المشيئة تستلزم حاجة من جانب المُريد ، ولهذا يقول « إن الله إذا وُصف بأنه مُريد لأفعاله ، فمعنى ذلك أنه خالقها ومنشئها وإذا وصف بأنه مريد لأفعال عباده أو وقوع أمرٍ ، فمعنى ذلك أنه حاكم بذلك أو آمر ، أو مخبر » .

وهذا الفهم للإرادة بأنها تستلزم حاجة من جانب المريد ، إنما هو فهم مقيس على المستوى الإنساني ، حيث إرادتنا محصورة في دائرة حاجاتنا

ومطالبنا فلا نريد إلا ما نحن في حاجة إليه .. وذلك فهم يتفق مع عالم النقص الذي نحن فيه ، فتكون إرادتنا متحركة في هذا العالم حسب حاجتنا ، ساعية إلى سد ما نشعر به من نقص .. إننا نريد كذا ، لأجل كذا .. سواء كان ذلك الذي نريده حقاً أو باطلاً ، حسناً أو قبيحاً .. إنه رهن بمشيئتنا فيما يظهر لنا ، وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : « إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليماً حكيماً » (الإنسان : ٢٩ — ٣٠) . وقوله سبحانه : « كلاً إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، وما تذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى ، وأهل المغفرة » (المدثر : ٥٤ — ٥٦) . فهناك اذن مشيئة للانسان ولكنها مشيئة مقيدة بمشيئة الله .

أما عالم الكمال ، فما يصدر عنه لا يصدر لحاجة ، وإن صدر بإرادة ومشيئة ولن يصدر بغير إرادة ومشيئة .. انه يجري مع الحكمة التي يطلبها الكمـــال .

مما تقدم يمكن أن نقول :

أولاً : أن المعتزلة قد بالغوا في رفع قيمة الانسان ، وكادوا يجعلون منه إلهاً مستقلاً بسلطان وجوده ، لا يلتفت إلى ما وراء وجوده في صراعه مع الحياة ، وفي تقلّبه بين خيرها وشرها ..

ولا شك أنّ هذه « الانعزالية » عن العالم العلوي ، تحرم الإنسان كثيراً من أمداد الاستعانة بالخالق جل وعلا ، كما أنها تدفع عنه داعية التوكل على الله ، والرضا بقضائه وقدره ، بعد أن ينفذ القضاء ، ويقع المقدور ، فيكون في هذا عزاء جميلاً عما وقع للإنسان مما يكره ويسوء . والله تعالى يقول : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلاّ في كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير ، لكن لا تأسوا على ما

فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور » (الحديد : ٢٢ — ٢٣) .

وثانياً : أن المعتزلة في دفعهم للإنسان إلى هذا الحد ، قد جاروا على الإنسان نفيه ، وخلّوا بينه وبين ذاته ، وألزموه أموراً وحملوه أوزاراً يلقى بها ربه في غير رجاء ، كما جعلوا صوالح أعماله حقاً ملزماً لله ، يطالبه به العبد في غير حياء !

وتلك حال يدخل فيها الضيم على الإنسان من كل وجه .. فإن أي انسان مهما بلغ من التقوى والكمال ، ومهما قدّم من خير وبر ، فهو في حاجة أبداً الى فضل الله ، وانه لن يدخل الجنة بعمله لأن اعماله مهما عظمت لن تفي بالقليل من بعض نعم الله وفضله عليه .. وفي هذا يقول الرسول الكريم : « إنكم لن تدخلوا الجنة بأعمالكم » .. قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلاّ أن يتغمدني الله برحمته » ..

وثالثاً : هذا القول بإطلاق حرية الإنسان في ضلاله أو هداه ، ينفي الحكمة من إرسال الرسل لهداية الناس ، وإخراجهم من الظلمات الى النور .. إذ لا معنى لإرسال الرسل ، إذا كان الإنسان ذا سلطان متمكن ، متحكم في كل أفعاله والله تعالى يقول عن نبيه الكريم : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (الأنبياء : ١٠٧) ويقول : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور ، بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » (إبراهيم : ١) .. ثم إن هذا القول أيضاً لا يجعل لدعاة الحقّ والاصلاح مكاناً بين الناس ، فلا أمْرَ بمعروف ، ولا نَهْيَ عن منكر ! أفبهذا تستقيم حياة الناس ؟ وأعلى هذا تقوم الحياة في أي مجتمع مؤمناً كان أو كافراً ؟ ثم أيكون — مع هذا — مكان لتلك القوانين الوضعية الزاجرة للخارجين عليها اذا كان الخارجون عليها يأتون ما يأتون جبِلّة وطبيعته كالحيوان ؟ وهل يجازى الحيوان بما يصدر عنه ؟ .

ولهذا وجد كثير من انصار المعتزلة حرجاً في الأخذ بقولهم هذا ، من إطلاق قدرة الانسان وارادته ..

فهذا إمام من أئمتهم ، وهو « الجاحظ » لا يرضى أن يقرر مذهب المعتزلة في هذه المسألة على هذا الوجه .. بل إنه ليصل إرادة العبد بارادة الله .. يقول الجاحظ : « لا فضل للانسان الا بالإرادة » .

ومعنى هذا أن للإنسان إرادة ، وأنه بغيرها لا يكون أحسن من الحيوان حالاً ، ولا أكرم منه منزلة ..

ولكن هذه الإرادة التي يحملها الإنسان في كيانه لا تعمل وحدها ، هكذا مطلقة من كل قيد ، فهي متصلة أولاً بكيان الإنسان كله ، وهي ثمرة من ثمرات التفاعل الذي يجري في هذا الكيان ، الذي هو متصل بهذا الوجود كله مقيد به ، ومؤثر فيه ، ومتأثر به .. وفي هذا يقول الجاحظ :

« لأن أفعال الإنسان كلها داخلة في نسيج حوادث الطبيعة من جهة ، ولأن علم الانسان كله اضطراري يأتيه من أعلى .. من جهة أخرى » .

ومعنى هذا أن الإرادة التي يعمل بها الانسان ليست كلها له ، لأنها فرع عن العلم الذي يحصله اضطراراً ، والذي يأتيه من أعلى ..

ونسأل : وأين إرادة الإنسان اذن ؟ .

نكاد نقول إن الجاحظ يقول بالجبر والاختيار معاً ..

رابعاً : إن المعتزلة وهم يحاولون أن يدافعوا عن « عدل الله » بإضافة أفعال الإنسان كلها ــ خيرها وشرها ــ الى الانسان .. أقول : أنهم بهذا الدفاع قد أنكروا على الله أن يكون قادراً ومريداً ، مطلق القدرة ، ومطلق الارادة ، أي ذا قدرة وارادة شاملتين .. والقدرة والارادة بهذا الوصف من صفات الكمال . فكيف لا يتصف الخالق بهما ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ..

المبحث السادس

ثورة على المعتزلة

لهذا لم يرتض أهل السنة من المسلمين آراء المعتزلة ، وإن حمدوا للكثير منهم دفاعهم عن الدين ، وكسرهم من حدة السلبية ، التي استولت على المجتمع الإسلامي ، بعد تلك الفتن الكثيرة ، والجراحات القاتلة ، التي أصابت الصميم من الجسد الاجتماعي الاسلامي ، بعد مقتل الإمام علي — كرم الله وجهه — ومصارع أهل البيت — رضوان الله عليهم — وامتحان كثر من صحابة رسول الله ، والتابعين ، على يد الخلفاء الأمويين والعباسيين على السواء ..

فكان الاستسلام للأحداث ، والتسليم للهزيمة ، هو العزاء لكثير من النفوس حتى لقد كان لسان حال الناس في كل أمر هو : هذا ما قضى الله وقدره ! ! .

وكان هذا القول — وهو قول حق — يقال في كل حال داعية اليه أو غير داعية ، يتعزى به الناس عند كل مصيبة ، ويستدعونه عند كل نازلة ، دون استحضار همهم ، وبذل جهدهم .. والقول بأن هذا قضاء

الله وقدر الله ، هو قول حق ، ولكن الاستنامة في ظل هذا القول ، وإلقاء كل أخطائنا على القَدَر هو الذي لا يرضاه عقل ، ولا يقره دين .

ثم لقد كان من جهة أخرى ظهور ظاهرة « التصوف » التي انساق إليها كثير من المسلمين ، ولبسوا بها ثوب الاعتزال عن الناس ، ونفض ايديهم من كل عمل منتج في هذه الحياة ، حتى لقد كادت تتعطل مرافق الحياة ، وتخلو ميادينها لغير المسلمين ، وكان من هذا أن توقف المدّ الإسلامي ، وجاءت الزحوف الصليبية زاحفة على أوطان الإسلام ، داخلة على المسلمين في عقر ديارهم تقتل ، وتسلب ، وتنهب ! .

من أجل هذا قام المعتزلة في وجه هذه الظاهرة ، وتصدّوْا لتلك الدعوة المريضة المستسلمة للواقع ، وعلى أنه قدر الله ومشيئته ، وهي فعلاً قدر الله ومشيئته ، ولكن نحن البشر لا نعلم قدر الله ومشيئته إلا بعد أن يقع القدر وتنفذ المشيئة .. أما قبل أن يقع القدر وتنفذ المشيئة ، فلا بد للإنسان من أن يعمل بكلّ قواه العقلية والجسدية حسب تقديره وتفكيره ومشيئته ، لجلب الخير ، ودفع الشر ، ثم ليكن بعد هذا أن نرضى بما شاء الله وقدر .. هذا ما ينبغي أن يكون من الانسان ، وهذا ما أراد القدرية من المعتزلة أن يقرروه ، ويدعو الناس اليه .. ولكن بدلاً من أن يقصدوا في تقرير مسئولية الإنسان ، وفي إبراز شخصيته ، واثبات وجوده مع أحداث الحياة ـ بالغوا أيّما مبالغة في هذا الأمر ، فبعد أن كان القول الذائع بأن ارادة الله فوق كل شيء ، وإرادة العبد لا شيء ـ أصبح القول عند المعتزلة هو : أن ارادة العبد هي كل شيء ، وأن ارادة الله لا شيء !

وهكذا اندفع المعتزلة زمناً وراء هذه الدعوة ، وجروا بها أشواطاً بعيدة حتى وقع الخلاف بينهم ، وقام فيهم من يردّ عليهم ، ويوقف انطلاق دعوتهم .. وكان « الأشعري» فارس هذه الحلبة ورجل هذا الميدان !

رَأيُ أَهلِ السُّنَّة

أبو الحسن الأشعري (المتوفى ٣٢٤هـ ـ ٩٣٦ م)

أبو الحسن الأشعري : وهو تلميذ أبي علي الجبائي ـ أحد أئمة المعتزلة ـ لم يقبل قول المعتزلة في إطلاق إرادة الانسان واختياره على هذا الوجه الذي قرره المعتزلة .. فكان له رأيه الذي أصبح ـ فيما بعد ـ الرأي الذي تقول به الجماعة (أي أهل السنة) .

يقول « دي بور » في كتابه تاريخ الفلسفة الاسلامية : « وظهر من بين صفوف المعتزلة رجل كانت رسالته أن يتوسط بين مختلف الآراء ، ويقيم بناء المذهب الذي عرف في الشرق ، ثم في بلاد العالم الاسلامي ، بأنه مذهب السنة .. » استطاع الأشعري أن يجعل لله ما يليق به ، دون أن يتحيف حق الإنسان ، فالإنسان عنده يمتاز بأنه يستطيع أن يضيف الى نفسه ما يخلقه الله فيه من الافعال وأن يعتبر ذلك من كسبه ..

وليست مكانة الأشعري عند جمهور المسلمين في هذا الرأي قرره .. كما يقول « دي بور » ـ فإن هذا الرأي في ذاته غير واضح المعالم ، وغير مقنع في قضية القدر ـ كما سنرى ـ ولكن قيمة الأشعري ومكانته ، إنما هي في خروجه على المعتزلة ووقوفه في وجههم ، وتصديه لهم وهم في أوج قوتهم ..

يقول (طاش كبرى زاده) في كتابه : « مفتاح السعادة » : « ودفع ـ أي الأشعري ـ الكتب التي ألفها على مذهب أهل السنة ، وكانت المعتزلة قبل ذلك قد رفعوا رؤوسهم ، فجحرهم الأشعري ، حتى دخلوا في أقماع السمسم ! ! » [1] .

---

(١) كتاب مفتاح السعادة ، لطاش كبرى زاده ، ج : ٢ ص : ٢٣ .

ويعلق المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرزاق على هذا بقوله : « وإذا كان مذهب الأشعري في محاربة المعتزلة بمثل سلاحهم ، من أساليب النظر العقلي — قد أضعف الاعتزال ، وأذل سلطانه ، فإن السياسة كان لها أثرها في نزوله عن عرشه أخيراً » [1] .

إن الأشعري ، قد وقف في وجه المعتزلة ، فانتزع منهم الإنسان الذي جعلوه في بعض أحواله خالقاً ، منفرداً بخلق أفعاله وتدبير وجوده ، حتى لكأنه يطاول إله العالمين وينازعه سلطانه — انتزع الأشعري هذا الإنسان الإلهي ، ونزل به الى واقع الحياة البشرية فجعله (كاسباً) لأفعاله ، لا خالقاً لها ، عاملاً بإرادته ، ولكن في ظل من إرادة الله ومشيئته.. لقد كان الأشعري — في أول أمره — رأساً من رؤوس المعتزلة — ثم اراد الله سبحانه أن ينير بصيرته ، ويخرجه من هذا الظلام الذي انعقد حوله ، فخرج على المعتزلة ، ووقف لهم بالمرصاد .. يقول الحافظ ابن عساكر في كتابه : « التبيين » : « إن أبا الحسن الأشعري ، كان معتزلياً ، وإنه أقام على مذهب الاعتزال أربعين سنة ، وكان لهم اماماً .. ثم انه غاب عن الناس خمسة عشر يوماً في بيته ، ثم خرج بعد ذلك الى الناس في المسجد ، فصعد المنبر بعد صلاة الجمعة ، وقال : معاشر الناس .. إني انما تغيبت عنكم في هذه المدة ، لأني نظرت ، فتكافأت عندي الأدلة ، ولم يترجح عندي باطل على حق ، ولا حق على باطل .. فاستهديت الله تبارك وتعالى ، فهداني الى ما أودعته في كتبي هذه وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده ، كما انخلعت من ثوبي هذا وانخلع من ثوب كان عليه ، ورمى به ، ودفع بالكتب الى الناس » .

ومن مناظرات الأشعري لشيخه الجبائي — كما يروي ذلك ابن خلكان — أن الأشعري سأل أستاذه الجبائي ، هذا السؤال : ثلاثة إخوة ، كان احدهم مؤمناً تقياً ، والثاني كان كافراً فاسقاً شقياً ، والثالث كان صغيراً ، فماتوا ،

---

(١) انظر كتابه : « تاريخ الفلسفة الاسلامية » ص : ٢٩٠ .

فكيف تكون حالهم ؟ فقال الجبائي : أما المؤمن ، ففي الدرجات (أي في الجنة) وأما الكافر ، ففي الدّركات (أي في النار) ، وأما الصغير ، فمن أهل السلامة .. فقال الأشعري : إن كان الصغير يريد أن يذهب الى درجات المؤمن ، هل يؤذن له ؟ فقال الجبائي : لا ، لأنه يقال له : أخوك إنما وصل الى هذه الدرجات بطاعاته الكثيرة ، وليس لك تلك الطاعات ، فقال الأشعري : فإن قال الصغير ، ذلك التقصير ليس مني ، فإنك ما أبقيتني ، ولا أقدرتني على الطاعة ، فقال الجبائي : يقول الباريء سبحانه : كنت أعلم لو بقيت لعصيت وصرت مستحقاً للعذاب الأليم ، فراعيت مصلحتك .. قال الأشعري ، فلو قال الأخ الأكبر : يا إله العالمين ، كما علمت حاله ، فقد علمت حالي، فلم رَاعيت مَصْلحته دوني ؟ فانقطع الجبائي ولم يدر ما يقول ! ! » [1] .

كسب الإنسان

فتح الأشعري بنظرية (الكسب) التي أحلها محل (الخلق) الذي تقول به المعتزلة — نقول : فتح باباً دخل منه كثير من الفلاسفة والمتكلمين على هذا الشيء الذي سمّاه الأشعري كسباً ، والذي يراه في الإنسان متلبساً بإرادته معلقاً بمشيئته .

وقد عدّ كثير من العلماء والباحثين قول الأشعري (بالكسب) لغزاً تَنَدّرُوا به ، ووضعوه موضع العقدة التي لا يعرف لها حل ، وذلك أنهم لم يروا فارقاً واضحاً بين (الْخَلْق) الذي تقول به المعتزلة ، وتنسبه للانسان وبين (الكسب) الذي يقول به الأشعري ويضيفه الى الانسان ، ويراه مناقضاً للقول بالخلق ..

---

(١) من كتاب مفتاح السعادة ، لطاش كبرى زاده . ج : ٢ ص : ٣٦ .

يقول ابن تيمية في تفنيد نظرية الكسب : « ولا يقول الاشعري : ان العبد فاعل في الحقيقة ، بل كاسب ، ولم يذكر بين الكسب والفعل فرقاً معقولاً ، بل حقيقة قولهم – أي الأشعرية – هو قول جهم : (وهو جهم ابن معبد ، رأس الجبرية) إن العبد لا قدرة له ، ولا فعل ولا كسب ..

وقد نظم بعضهم هذا شعراً ، وقرن نظرية القول (بالكسب) الى نظرية القول (بالطفرة) عند النظام المعتزلي ، والقول (بالحال) عندهم ابن هاشم المعتزلي أيضاً :

مما يقال ولا حقيقة عنده
معقولة تدنو إلى الأفهام
الكَسبُ عند الأشعري والحال
عند البيهشي وطفرة النظام [1]

والذي جعل الأشعري يقول (بالكسب) هو ما رآه في الإنسان من ارادة وقدرة على الفعل أو الترك ، ثم ما يراه من جهة أخرى من قدرة الله المطلقة الشاملة ، وعلمه المحيط بكل شيء ، فلم يرتض أن يقول : إن العبد خالق لأفعاله ، لأن الخلق لله وحده ، ولم يقبل أن يجعل العبد آلةً مسخرة كالحيوان والجماد ، لأنه يراه يعمل ويراه يعمل بإرادة ، ويتحرك بقدرة ويقدم أو يحجم عن تقدير وتفكير .. فلا بد والأمر كذلك أن يضيف الى الانسان شيئاً مما يعمل ، لا كلّ ما يعمل ، وسمي هذا (كسباً) .

يقول الأشعري : (والعبد قادر على أفعال العباد .. إذ الإنسان يجد من نفسه تفرقة ضرورية ، بين حركات الرعدة والرعشة – التي هي حركات اضطرارية – وبين حركات الاختيار والإرادة .. إن الحركات الاختيارية

---

(١) البيهشمي : نسبة إلى أبي هاشم ، ابن أبي علي الجبائي ، من شيوخ المعتزلة .

حاصلة من اختيار القادر ، والمكتسب هو المقدور بالقدرة الحادثة)[1] .

وعلى أي ، فإن نظرية (الكسب) هذه التي قررها الأشعري ، قد أثارت جواً من التفكير عند الباحثين في هذه المشكلة ، وكانت معتمد الذين لا يقولون بقول المعتزلة ، من أن للإنسان اختياراً مطلقاً في أفعاله ، وإنما للانسان نوع من الاختيار ، ودرجة من الإرادة ، حيث يضعون الإنسان في منزلة بين الاختيار والجبر ، فلا هو مختار مطلق ، ولا هو مجبر ملزم .. إن له ارادة ، ولكنها ارادة مقيدة بأكثر من قيد .

ولقد صار الأشعري بقوله هذا زعيماً لحركة أطلق عليها لفظ (الأشاعرة) ، نسبة اليه ، ثم أصبحت هذه الحركة معبرة عن رأي أهل السنة .

وقد ظاهر هذه الحركة كثير من علماء السنة وفقائها .. منهم امام الحرمين .. أبو المعالي الجويني ، والقاضي ابو بكر الباقلاني ، وفخر الدين الرازي ، والامام الغزالي ، ولسان الدين بن الخطيب .. وكثير غيرهم .

حركة الاشاعرة

يدور رأي الأشاعرة – كما أشرنا من قبل – على القول بأن الإنسان في (منطقة) حَرام ، بين الجبر والاختيار ...

فالإنسان مختار في قالب مُجبَر ، وأنه أشبه براكب سفينة تمخر عُباب المحيط ، فهو حُرٌّ مختار يسير كيف يشاء ، وأين يشاء ومتى يشاء ، داخل هذه السفينة ، ولكنه مجبر مسير هو وسفينته بعوامل خارجية تحيط به وبالسفينة .. كالأنواء ، والعواصف وغيرها .. مما يتصل بسلامة

---

(١) انظر في هذا ، كتاب الملل والنحل للشهرستاني : الجزء الأول .

السفينة وقوة احتمالها .. كذلك الإنسان في سفينة الوجود ! هو حر مطلق ، ولكنه مقيد بالنظام العام للوجود ! .

فالأشاعرة هنا قريبون من الفلاسفة الغربيين القائلين بنظرية الاتّفاقية ، أو الظّروف والمُناسبات .. ومعناها أنّ كل فعل إنما هو في الحقيقة لله ، ولكنه يظهر على النحو الذي ينَظْهر فيه ، إذا تحققت ظروف خاصة : إنسانية ، أو غير إنسانية ، حتّى لكأنما يخيل للإنسان أن الظروف هي التي أوجدت هذا الفعل ..

والأشعري ، يرى ألا تأثير للقدرة الحادثة في الأحداث ، وإنما جرت سنة الله بأن يلازم بيْن الفعل المحدَث ، وبين القدرة المُحدِثة له ، ويُسمّى هذا الفعل كَسْباً ، فيكون خَلْقاً من الله تعالى ، وكَسْباً من العبد ، في متناول قدرته واستطاعته .. وهذا ما يقدم على مذهب أهل السنة ، وينطق به الحال من واقع الإنسان .

يقول السبكي في كتابه طبقات الشافعيــة الكبرى (ج : ٢ س : ٢٥٤) : « واعلم أن أبا الحسين الأشعري ، لم يبدع ، رأياً ، ولم ينشىء مذهباً ، وإنما هو مقرر لمذهب السلف ؛ مناضل عما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ فالإنتساب اليه إنما هو باعتبار أنه عقد على طريق السلف نطاقاً ، وتمسك به ، وأقام الحجج والبراهين عليه ، فصار المقتدى به في ذلك السالك سبيله في الدلائل يسمى أشعرياً ، وقد ذكر شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، أن عقيدته اجتمع عليها الشافعية ، والحنفية ، والمالكية ، والفضلاء الحنابلة » .

هذا هو المحتوى الإجمالي لمذهب (الأشاعرة) غير أن لكلّ صاحب قول في هذا المذهب اتجاهاً خاصاً في تقرير هذه القضية ، وتحريرها .. كما سنرى في عرض هذه النماذج من المقولات .

لسان الدين بن الخطيب ورأيه في الكسب

يرى لسان الدين بن الخطيب ، أن الكسب فعل يخلقه الله في العبد ، كما يخلق فيه القدرة ، والإرادة ، والعلم .. فيضاف الفعل الى الله (خلقاً) لأنه خالقه ، والى العبد (كسباً) لأنه محله الذي قام به ..

يقول ابن الخطيب :

(وإذا كانت العرب تقول : حرّكت القضيبَ فتحرك ، فتجعل الحركة بين فاعلين ، حركةٌ للمتحرك ، وفعلاً للمحرك ، فذلك — أي ما يصدر عن الإنسان — أقرب لوجود القصد ، والعلم ، والقدرة في محيط الانسان .. ثم إن الطاعة والمعصية للعبد من حيث الكسب . ولا طاعة ولا معصية — أي للعبد — من حيث الخلق ! .

ثم يقول لسان الدين بن الخطيب :

(والخلق لا يصح أن يضاف الى العبد ، لأنه إيجاد من عدم ، والفعل موجود بالقدرة القديمة ، لعموم تعلّق القدرة الحادثة بها .. فالقدرة الحادثة تتعلق ولا تؤثر .. وهذه — أي القدرة الحادثة — تصلح للتأثير لولا المانع ، وهو وجود القدرة القديمة ، لأنهما اذا تواردا — أي اجتمعا : القدرة القديمة والحادثة — لم يكن للقدرة الحادثة تأثير ! !) .

فابن الخطيب ، يرى للإنسان قصداً ، وعلماً يتلقى بهما ضروبَ الأمور في الحياة .. فهذا جانب حرٌّ ، أو منطقة حرة في كيان الإنسان .. ولكنه يرى من جهة أخرى أن الأفعال كلها مخلوقة لله بإرادة أزلية سابقة شاملة ، وأن إرادة الإنسان لا تؤثر في القدرة القديمة ..

فالإنسان محكوم عليه أن ينفذ ما وقع في إرادة الله ، وأن إرادة الإنسان ، وقصده ، وعلمه — كل هذا ، لا يغير من المقدّر عليه شيئاً .. فالإنسان حرٌّ الى أن يفرغ من الفعل الذي قُدّر عليه بإرادة سابقة أن يقع على يديه .

وتسأل ما قيمة هذه الحرية مع ما سبق من إرادة الله وقدرته ؟ إن

الانسان في ظاهر الأمر يبدو حُرّاً طليقاً ، ولكنّ قوة غير ظاهرة هي التي تقوده الى ما سبق به علم الله ، وقضَتْ به إرادته .. ومرّة أخرى : ما قيمة هذه الحرية ؟ أتراها تَدْفع شيئاً مما قَضَى به الله وقدّره ؟ .

والجواب : كلا .. إنها لا تَدْفع قضاءً ولا تَرُدّ قَدراً .. ولكنها حرية تتيح للإنسان أن يبرزَ ذاته ، وأن يُعْمِل قواه كلّها ، وأن يَفرض وجودَه على الحياة ، وأن يَبْسط سلطانه على الأشياء ، وإن تَفَلّتَتْ منه وخرجت من يديه ! .

وذلك شيء ليس بالقليل في وجود الإنسان الذي لا قيمة له بغير هذه الحُرية التي تَمْنَحه الاستعلاء على الأشياء ، وتُريه من نفسه أنه قادر ، مستطيع ، عالم ، مريد .. وإن لم يكن قادراً ، ولا مستطيعاً ، ولا عالماً ، ولا مريداً .

الى جانب قدرة الله تعالى . واستطاعته ، وعلمه وإرادته .

إمام الحرمين ورأيه في الكسب

هو أبو المعالي ، عبد الملك بن عبد الله الجويني ، المعروف بإمام الحرمين (توفي سنة ٤٧٨ هجرية) .

وقد نزع إمام الحرمين بنظرية الكسب منزعاً آخر .. إنه يطلق حرية الإنسان من جانب ، ويربطه بالأسباب الخارجة عن محيطه من جانب آخر .. ثم يجعل أفعال الإنسان ــ تَبعاً لهذا ــ قِسْمة بَين إرادته وبين الأسباب الملازمة .

يقول :

(نَفْيُ القدرة والاستطاعة عن الإنسان ، مما يأباه العقل والحِسّ .. فلا

بد إذن من نسبة فعل العبد الى قدرته حقيقةً ، لا على وجه الإحداث والخلْق.
فإن الخَلْقُ يشعر باستقلالٍ في إيجاد الفِعل من العدم ، وذلك من شأن الله وحده ...

(والإنسان كما يُحس مِن نَفْسه الاقتدار ، يُحِسّ من نفسه أيضاً عَدَم الاستقلال .. فالفعل يَسْتند وجوداً الى القدرة – أي القدرة الإنسانية .

(والقدرة تستند وجوداً الى سَبَب آخر يكون نِسْبة القدرةِ الى ذلك السبب كنسبة الفعل الى القدرة ! .

(وكذلك يستند سبب الى سبب ، حتى ينتهي الى مُسَبِّب الأسباب .. فهو – أي الله – الخالق للأسباب ومسبباتها ، المستغني على الإطلاق ، عن الأسباب والمسببات .. على خلاف الأسباب ، فإن كل سبب مُسْتَغْن من وجه ، محتاج من وجه ، والباري تعالى ، هو المطلق الذي لا حاجة له ولا افتقار) .

ورأي إمام الحرمين – كما ترى – غير صريحٍ في حرية الإنسان أو اضطراره، إنه يضع الانسان في منطقة الذبذبات الاختبارية المقيدة في مجال الاضطرار .

انظر :

الفعل يستند وجوداً الى القدرة ، أي القدرة التي تحمل الإنسان على اختيار فعل دون فعل .. وهذا واضح ...

والقدرة تستند وجوداً الى سبب ! .

ومعنى هذا أن القدرة التي يواجه بها الإنسان أي أمر هي وليدة سبب وهذا السبب الذي به أصبح الإنسان ذا قدرة ، يتولد من أسباب كثيرة ، بعضها وراثي ، وبعضها كَسْبي ، وهي في الواقع كلّ كيان الإنسان ، الذي ليس للإنسان – في الواقع – أثر كبير في تكيفه .

فهذه الأسباب التي توجد القدرة ، هي موضع النظر في هذه القضية .. فمن أوجدها وقدّرها ؟ هذا هو أساس المشكلة التي يُطلب علاجها ... ثم أليس هذا هو رأي (الجاحظ) المعتزلي ، الذي يقول : « إن افعال الانسان كلها داخلة في نسيج حوادث الطبيعة ، وإن ارادة الإنسان هي القوة العاملة فيه ، وأن هذه الإرادة هي فرع العلم ، وثمرة من ثمراته ، وأن العلم اضطراري يأتي من أعلى » ؟ .

فالإنسان بمقتضى هذا القول ، عند إمام الحرمين ، هو مجبر في صورة مختار أو مختار في حال مقيد » ! .

رأي الغزالي في الكسب

يذهب الغزالي في قضية القدر مذهب التسليم ، فيأخذ بظاهر آيات الكتاب ولا يرضى لعقله الفلسفي ان يتناول هذه القضية .

يقول الغزالي [1] : (الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعاً ، وخلق الاختيار والمختار جميعاً .. فأما القدرة فوصف للعبد ، وخلق للرب ، وأما الحركة فخلق للرب ، ووصف للعبد وكسب له) .

ومعنى هذا — كما يقول الغزالي — أن الله خالق كل شيء .. القدرة والمقدور جميعاً .. فليس للعبد شيء إذن ، ان له بالعمل نوعاً من الصلة ، وهو الكسب الذي يقول به الأشعري ! .

ثم يقول الغزالي : (واعلم أن من ظن أن الله تعالى أنزل الكتب ، وأرسل الرسل ، وأمر ونهى ووعد وتوعد ، لغير قادر مختار — فهو مختل المزاج محتاج الى علاج) ! .

---

(١) انظر كتاب : فرائد اللآلىء من رسائل الغزالي ، ص : ١٥٦ وما بعدها .

وهذه حجة اعتمد فيها الغزالي على النقل أكثر من اعتماده على العقل ، فالإنسان عند الغزالي ، قادر وعاجز في حال معاً ، وهذا ما يشهد به واقع الحياة ، وتصدقه التجربة ، ومعنى هذا أن الانسان يحاسب ويواخذ بمقتضى عجزه وقدرته معاً .. ولعل هذا ما يشير اليه قوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً الا وسعها » (البقرة : ٢٨٦) وقوله سبحانه : « لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها » (الطلاق : ٧) .

رأي الفارابي في الكسب

يقول الفارابي وهو فيلسوف مسلم ، ينظر الى القضية بعقل فلسفي مجرد :

(وللنفس بطبيعتها نزوع ، أي رغبة وإرادة تنزع بالإنسان الى العمل ، ولما كانت النفس تحس وتتخيل ، فلها إرادة كسائر الحيوان ، غير أن الاختيار للإنسان فقط دون الحيوان .. لأن الاختيار يقوم على الروية ، وميدانها ميدان العقل الخالص ... فالاختيار متوقف على أسباب من الفكر .. فكان الاختيار والاضطرار في وقت واحد .. لأنه – أي العقل – بحسب أصله الأول ، مقدر في علم الله .

ثم يقول الفارابي :

(والاختيار الإنساني ، إذا فهم على هذا النحو ، لا يستطيع أن يقهر الشهوة إلا قهراً ناقصاً ، لأن المادة تقف في سبيله ، وعلى هذا لا تكتمل حرية النفس الناطقة (أي النفس الإنسانية) إلا اذا تحررت من قيود المادة ، أعني اذا صارت النفس عقلاً) ! .

وواضح أن رأي الفارابي يتفق مع رأي إمام الحرمين .. لأن الاختيار الذي يقول به ، متوقف على أسباب من الفكر .. والعقل مقدّر في علم

الله ، والإنسان إنما يعمل بما وهبه الله من عقل ، فهو يعمل في حدود ما آتاه الله .

رأي الفيلسوف محمد اقبال

ويقول الفيلسوف الباكستاني محمد إقبال في هذا الموضوع :

(ولا شك ان ظهور ذوات لها قدرة على الفعل التلقائي ، ومن ثم يكون فعلها غير متنبأ به — يتضمن تحديداً لحرية الذات المحيطة بكل شيء) ..

يريد إقبال أن يقول : إن إرادة الإنسان التي تَخَلَّق من تلقاء نفسها ، فيها تحديد لإرادة الله المطلقة ، إذا كانت هناك إرادات تعمل مستقلة عن تلك الإرادة الشاملة ..

ثم يقول اقبال :

(ولكن هذا التحديد لم يفرض على الذات الأولى — ذات الله — من خارج ، بل نشأ عن حريتها الخالقة التي شاءت أن تصطفي بعض الذوات المتناهية — أي ذوات البشر — لتقاسمه .. في الحياة ، والقوة ، والاختيار) !

ومعنى هذا — كما يقول إقبال — إنه لا تعارض بين إرادة الله وإرادة الإنسان ، فالله سبحانه بإرادته الشاملة خلق إرادات تعمل في حدود معينة ، هي حدود الإمكان البشري .

ثم يقول اقبال : (ورب سائل يقول : ولكن كيف يكون في الإمكان التوفيق بين تلك القدرة وبين القدرة المطلقة ؟) .

ويجيب على هذا بقوله :

(كل فعل ، سواء أكان متصلا بالخالق ، أم غير متصل به ، هو نوع

من التحديد ، يستحيل بغيره أن نتصور الله ذاتا فعالة متحققة الوجود في الخارج ... ولو أننـــا تصورنا القدرة المطلقة تصوراً مجرداً ، لكانت مجرد نوع من قوة عمياء ، متقلبة الأهواء ، ولا حدّ لها ..

(والقرآن يصور الطبيعة تَصويراً واضحاً محدداً ، بوصفها عالما يتألف من قوى يتعلق بعضها ببعض ، وعلى هذا ، فهو – أي القرآن – يعتبر قدرة الله المطلقة وثيقة الصلة بحكمته الإلـهية ، ويرى أن قدرة الله غير المتناهية ، تتجلى لا فيما هو مُتَعَسِّف صادرٍ عن الهوى ، وإنما في المتواتر ، المطرد ، المنظم) .

يريد إقبال أن يقول : إن كلّ الحوادث الواقعة في الوجودِ ، هي في الوقائع تحَديدٌ لقدرة الله ، لأنها – أي القدرة – تَجْري بما اقتضته الحكمة الإلَهية التي أودعت في الوجود نظاما مطرّدا ، والنِّظَام في ذاته قيد من غير شك ! وهذا النظام هو ما يعرف بسنّة الله . كما يقول تعالى : « سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» (الفتح : ٢٣) وكما يقول سبحانه : « سنّة من قد أرسلنا قبلك من رُسلنا ولن تجد لسنة الله تحويلاً » (الإسراء : ٧٧)

ثم يقول إقبال في موضع آخر :

(فالمعصية الأولى للإنسان – معصية آدم – كانت أول فعل – أي للانسان – تتمثّل فيه حرية الاختيار ، ولهذا تاب الله على آدم ، وغفر له ...

« وعمل الخير لا يمكن أن يكون قَسْراً ، بل هو خضوع عن طواعية لِلْمَثَل الأخلاقي الأعلى ، خضوعاً ينشأ عن تعاون الذوات الحرة المختارة ، عن رغبة ورضى .

« والكائن الذي قُدِّرتْ عليه حرَكاته كلُّها ، كما قُدِّرت حركات الآله ، لا يقدر على فعل الخير .. وعلى هذا فإنّ الحرية شرط في عمل الخير..

« ولكن السّماح بظهور ذاتٍ متناهية لها قدرة على أن تختار ما تفعل بعد تقدير القيمة النسبية للأفعال الممكنة لها — هو في الحق مغامرة كبرى ، لأن حرية اختيار الخير تتضمن حرية اختيار عكسه ..

« وكون المشيئة الإلهية اقتضت ذلك، دليل على ما لله من ثقة في الإنسان.. ولقد بقي على الانسان أن يبرهن على أنه أهل لهذه الثقة ! »

« وربما كانت مغامرة كهذه ، هي وحدها التي تُيَسِّر الابتلاء ، والتنبيه لِلْقُوى الممكنة لوجود (خُلِقَ في أحسن تقويم) ثم رُدَّ إلى (أسفل سافلين) وكما يقول القرآن : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) [1]

وهذا — في رأينا — أعدل رأي في هذه القضية ، لأنه يقرر :

أولاً : ان الله تعـالى ، وهو قادر قدرة مطلقة على أن يفعل ما يشاء ، فإنه سبحانه بقدرته وحكمته ، قد أقام الوجود على سنن ، هي النظام الممسك بهذا الوجود « الذي خلق سبع سماوات طباقا ، ما ترى في الخلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر ، هل ترى من فطور ، ثم أرجع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » (سورة الملك : ٢—٣) .

وثانياً : شاءت إرادة الله ، واقتضت حكمته أن يخلق كائناً — هو الإنسان — له الحرية في الفعل والترك ، وفي الاختيار بين الحسن والقبيح ، وفي هذا ابتلاء لهذا المخلوق من بين سائر المخلوقات ، وهو في الوقت نفسه تكريم للانسان ، وعلى الإنسان أن يثبت أنه أهل لهذا التكريم ، فيكون على مستوى هذا الخلق الذي خلق عليه « في أحسن تقويم » وألا يرد إلى « أسفل سافلين » .. وحسب الإنسان من هذا أن ظهر في نوعه أولئك القمم من عباد الله الصالحين ، الممثلين في الأنبياء والرسل ، والأولياء ، وأهل التقوى ، ولا على الانسانية ، وقد ارتفعت بهذه الصفوة من الناس إلى أعلى عليين ،

---

(١) من كتاب تجديد التفكر الديني الإسلامي ، لمحمد إقبال ، ترجمة المرحوم عباس ص : ٦١ وما بعدها .

أن يكون من شجرتها تلك الثمرات المعطوبة ، إلى جانب تلك الثمرات الطيبة المباركة .. وهذا ما نراه في آدم ــ أبي البشر ــ حين أعلم الله الملائكة أنه خالق بشراً من طين ، ليكون خليفة الله في الأرض، ثم حين استكثر الملائكة على هذا المخلوق من تراب أن يكون خليفة لله دونهم ، فوضعهم الله تعالى في مقام الامتحان مع آدم ، وقد كشف هذا الامتحان عمّا في آدم من قوى لا تملكها الملائكة ، ولهذا أمر الله سبحانه الملائكة أن يسجدوا لآدم ، سجود تكريم له ، واعتراف بما أودع فيه الخالق من ملكات ليست للملائكة .. وهذا جانب من آدم ارتفع به إلى هذا المقام العظيم ، إلى أعلى عليين .. ثم كان هناك جانب من آدم ، نزل به إلى أسفل سافلين ، حين عَصَى ربه ، وأكل من الشجرة التي نهاه الله تعالى عن الاقتراب منها ، وبين جانب هذا العلو السامق ، وهذا الانحدار المسِفّ من آدم ، استطاع أن يحفظ توازنه وأن يقال من عثرته ، فَرَجع إلى ربه نادماً تائباً ، فأقال الله عثرته ، وتقبل توبته . وفي هذا يقول الله تعالى : « وإذ قَالَ ربُّك للملائكة، إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيهامن يفسد فيها ويَسْفِك الدِّماء ، ونحن نُسَبِّحُ بحمدك ، ونُقَدِّس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون ، وعلَّم آدمَ الأسماءَ كلّها، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قَالُوا سبحانك لا عِلْمَ لنا إلاَّ ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئْهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال ألم أقل لكم إني أعلم غَيْبَ السموات والأرضِ ، وأعلم ما تُبدون وما كُنْتم تكتمون ، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الاَّ ابليس أبى واستَكبرَ وكان من الكافرين ، وقلنا يا آدم اسْكُنْ أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الارض مستقر ومتاع إلى حين ، فتلقى آدمُ من ربِّه كلماتٍ فتَابَ عليه إنه هو التواب الرحيم » (سورة البقرة : ٣٠ ــ ٣٧) ..

ويعجبني في هذا المقام رأي للفيلسوف الأميركي (رويس) يصور به الصلة بين الله والإنسان ، وهي صلة — كما يراها الفيلسوف ، تجعل لله سبحانه ، القدرة المطلقة ، كما تجعل للإنسان قدرة عاملة داخل قدرة الله .. ويضرب الفيلسوف لهذا مثلا محكماً من الرياضيات ، التي تعتبر أكثر المعارف دقة وانضباطا ..

والمثل الذي ضربه (رويس) هو أنه وضع لله سبحانه وتعالى دلالة من الأعداد هي سلسلة ، تبدأ بالواحد ، ولا تنتهي .. هكذا :

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ... إلى ما لا نهاية .. وهو الله سبحانه فهذا هو المطلق الذي يشتمل على كل شيء ..

أما الموجودات ، فقد صورها (رويس) في سلاسل عددية على هذا النحو الآتي :

٢ — ٤ — ٨ — ١٦ .. إلى ما لا نهاية .

٣ — ٩ — ٢٧ — ٨١ .. إلى ما لا نهاية .

٥ — ٢٥ — ١٢٥ — ٦٢٥ .. إلى ما لا نهاية .

٧ — ٤٩ — ٣٤٣ — ٢٤٠١ .. إلى ما لا نهاية .

وهكذا تتوالى سلاسل الأعداد إلى ما لا نهاية أيضاً ..

وكل عدد من هذه الاعداد يمثل فرداً من أفراد الناس ..

ويلاحظ في هذه الأعداد الانسانية :

أولاً : أنها داخلة جميعها في السلسلة الأولى ، اذ جميع ما فيهـا من أعداد تشتمل عليه السلسلة الأولى التي تمثل (المطلق) .

ثانياً : أنها تتميز بطابع فريد ، يجعلها وحدة قائمة بذاتها ، ليس بينها

وبين غيرها اتفاق مطلق .

هذا المثل يعطينا تصوراً واضحاً للصلة التي بين الانسان وبين الله من جهة وبين الانسان وبين غيره من الناس من جهة أخرى .

ففي كل سلسلة انسانية شيء من السلسلة الأولى (الله) أو المطلق وهي واقعة في مضمونها ..

هذا يعني أن للانسان ذاتية خاصة ، وإن كانت تلك الذاتية ضمن مشتملات الذات الأولى ، ومعنى هذا أيضاً أن الانسان مطلق من جهة ومقيد من جهة أخرى .. له ذاتيته ، ولكنها لا تخرج عن دائرة المطلق .

ثم ان هذا الاختلاف بين هذه السلاسل يعني أن الناس لا بد أن يكونوا مختلفين فيما بينهم .. كل إنسان كون مستقل بذاته ، داخل هذا الكون العظيم (المطلق) ..

وهناك الفيلسوف (وليم جيمس) الذي يحقق ذاتية الانسان ، مع وجود الله ، فلا يلغي إرادة الإنسان مع إرادة الله ، ويرسم لهذا صورة قريبة من الصورة التي رسمها (رويس) .. ولكنها صورة كلامية ، وليست عددية .

يقول (جيمس) :

(الإله الذي هو عقل [1] ، يشمل سائر العقول وليس منفصلا عن الكون انفصال الخالق عن خلقه ، كما تصورت الديانات التقليدية ، كلا ، ولا هو حالٌ في الوجود كله ، كما تصورت فلسفة وحدة الوجود .

ولكن إله بينه وبين سائر العقول الفردية قسط مشترك ، هو الاشتراك في ادراكات بعينها ، ولكنه في الوقت نفسه يتميز بفردية مستقلة ، كما يتميز كل فرد من الافراد الصغرى بفرديته المستقلة ..

---

(١) هذا التصور لله على انه عقل ، هو تصور فلسفي ، لا يستند إلى مقولات الدين ..

(فالصورة ، أقرب إلى سلم متدرج من عقول .. فعقل أكبر من عقل ، لأنه يدرك ادراكات هذا العقل ثم يزيد عليها ، ثم عقل ثالث أكبر من هذا العقل فرابع أكبر .. وهكذا دواليك صعودا ، دون ان يتحتم ان يكون هناك عقل مطلق يسع كل شيء .. فالعقل الأعلى فيه كل ما في الأدنى مع الاحتمال دائماً بأن يكون هناك ما هو أعلى ..) .

ومنطق هذا القول يقضي بأن لا تنتهي درجات السلم العقلي عند نهاية ليس بعدها شيء ، بل يوجد دائماً احتمال بأن يكون هناك ما هو أعلى مع وجود هذا الاحتمال ، فإن الواقع المحقق هو أن هناك عقلاً أعلى يسع العقول جميعاً ، وهو الذي يمكن أن يطلق عليه العقل المطلق ، ما دام ليس هناك ما هو فوقه ..

فاذا وقع الاحتمال المتوقع ، وهو ظهور عقل أعلى ، كان هو العقل المطلق وهكذا ..

ولعل ما حدا بوليم جيمس إلى هذه الفكرة التي تجعل العقول متصاعدة دون أن تضيع في ذلك شخصية العقل الأدنى في العقل الأعلى — هو أنه أراد أن يحتفظ لكل فرد بإرادته المستقلة ، لتقع عليه مسئوليته الخلقية .. وهذا ما يجعل لكفاح الأفراد نحو الخير معنى ، لأنه يجعل في مستطاع الأفراد تغيير ما هو كائن ، اذا كان ذلك الكائن شراً ، ليصبح أفضل ممـــا هو واكمل..وإذا كان هذا الفيلسوف،قد نحا هذا المنحى،وأقام بتصوره هذا البناء العقلي المتصاعد ، حتى وصل إلى العقل المطلق ، فإنه لم يقف في تصوره هذا عند البحث في ذات الله ولا في تقرير ان الله موجود أو غير موجود ، وانما اطلق لتصوره العنان ، مستمداً مقولاته من الواقع المشهود للانسان ، وما بين العقول الانسانية من تفاوت ، حيث يعلو بعضها بعضها ، ويحتوي الأعلى منها العقل الذي هو دونه ، وإنه جَرْياً وراء هذا التصور كان لا بد له من أن يقرر أن هناك عقلا يعلو العقول كلهـــا ويحتويها ، وهو « المطلق »

الذي ليس بعده عقل يحتويه .. انه تصور عقلي فلسفي ، لاعقل ديني يؤمن بالله ، المنزه عن المشاكلة ، والمماثلة ، وعن التداخل والتّماس ...

الله والإنسان .. مرة أخرى

والحق أنه لايستطيع عاقل أن ينكر إرادة الإنسان المستقرة في كيانه ، والتي بها يتعامل مع الحياة فيقبل على الشيء أو يعرض عنه ، حسب تقديره وإرادته والحق كذلك أنه لا يستطيع مؤمن بالله أن ينكر قدرة الله الشاملة ، وارادته النافذة وأن كل شيء بيد الله ، وتحت مشيئته .. والله تعالى يقول : في أهل الزيغ والضلال : « وإن تصبهم حَسَنَة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » (النساء : ٧٧) ويقول النبي الكريم فيما رواه مسلم : « كلُّ شيءٍ بِقَدَرٍ حتى العجز والكيّس » أي الحمق والظَّرْف ..

هذان الأمران يكاد يتفق عليهما جميع المؤمنين بالله ، وهما : أن لله إرادة وقدرة ، وأن للإنسان إرادة وقدرة ..

ولكن الخلاف يقع ويشتد بين المؤمنين بالله ، حين ينظر الناظرون منهم إلى الارادتين معاً ، وإلى القدرتين معاً ، في مجال التصريف والعمل ..

وقد رأينا ألوانا مختلفة من التفكير ، ومذاهب متعددة من الرأي ، في تقدير إرادة الإنسان وقدرته ، إلى جانب إرادة الله وقدرته ..

فذهب قوم — وهم الجبرية — إلى أن إرادة الإنسان وقدرته لا أثر لهما إزاء إرادة الله وقدرته ، بينما ذهب أقوام إلى عكس هذا ، فقالوا : إن إرادة الإنسان لا تلغيها إرادة الله ، ولا تعطل عملها . فالإنسان حر مختار يفعل ما يشاء ، كيف يشاء ، وهذا هو مذهب المعتزلة ، الذي سمّوا أنفسهم

أهل العدل أي القائلين بعدل الله الذي يقضي بأن يحاسب ويجازي الإنسان بما عمل بإرادته ومشيئته .

وقد كان يمكن أن يمضي القول بهذا الرأي أو ذاك ، أو بالرأيين معاً ، دون أن يبدو أثر ظاهر في واقع الحياة إذا انتقلت من رأي إلى رأي .. فسيّان ان يكون الإنسان في واقعه يعمل في أمور مطلقة يخلقها كيف يشاء ويديرها حيث يريد ، أو في أمور قدرت من قبل ، وأخذت صورتها كاملة قبل أن يلتقي بها ما دام الإنسان لم يؤت قدرة على كشف الغيب والتحقق من نتائج الأعمال قبل معالجتها ووقوعها .

إن الإنسان يعالج أمور الحياة حسب تقديره ، ويمضيها حسب ارادته ثم تجيء نتائجها التي لا يعلم علمها إلا بعد أن تقع .. وكون الإنسان يعمل في أمور قدرت ، أو في أمور لم تقدر ، فإن ذلك لا يؤثر على إرادته العاملة ، ولا يتدخل تدخلاً محسوساً في تدبيره أموره .

أقول : إن القول بأن الإنسان مختار أو مجبر ، والقول بأنه يعمل في أمور مقدرة أو غير مقدرة — إن هذا القول أو ذاك لا يظهر لهما أثر إلا إذا نزلت أعمال الإنسان منزل الحساب والجزاء ، حين يحاسب على عمَله ، فيجزي عن الخير خيراً . وعن الشر شراً .

هنا يتغير الموقف ، ويصبح للقول باختيار الإنسان أو جبره ، وللقول بالقدَر أو بأن لا قدر — نتائج خطيرة ، يتعلق بها مصير الإنسان ، وتتقرر بها سعادته أو شقاؤه في الدار الآخرة ..

فإذا قيل إن الإنسان حر مختار ، كان معنى هذا أنه مسئول عن عمله الحسن أو السيء ، وأنه سينال ثوابه وعقابه على ما قدم من عمل ، ولا حُجة له أمام الله ....

وإذا قيل إنه مجبر مُكره ، وأنه يعمل بإرادة غالبة ، وبقدر سابق ،

كان معنى هذا الا ّ تَبِعة عليه ، وبالتالي ألا ثَوابَ على حَسَنٍ ، ولا عقاب على سيء ..

ولكن الذي يقال هو غير هذا ..

فهناك دار الآخرة ، وفيها ثواب وعقاب ، وجَنة لِلمؤمنين المتّقين ، ونار لِلعُصاة المذنبين .

وهنا تجيء التساؤلات والاعتراضات :

ما ذنب الإنسان ؟ وكيف يسأل عن أعمال مقدورةٍ ، محكوم عليه أن يعملها ؟ شاء أو أبى ، رَضي أم سخط ؟

وهنا تبرز مشكلة القضاء والقدر ، وتصبح هذه المشكلة في مجال النظر والامتحان .

وهنا تتفتح لكثير من الناس أبواب المنازعة في تدبير الله وفي حكمته ، وفي قضائه وقدره ..

فمن مستسلم لحكمة الله وتدبيره ، وقضائه فيه ، مؤمن بأنّ ما أصابه من خير أو شر فهو بقضاء الله وقدره ، رَاضٍ بما قَسَمَ الله .. ومن مُتخبط متسخط ، يضيف إلى نفسه الأعمال الطيبة الناجحة ، ويَرْمي القَدَرَ بما لا يُرضيه وَما لا يُرضي الناس ولا الله عنه من الأعمال ..

وقد كان إبليس — لعنه الله — أول من احتج ، بالقدر بعد أن عصى أمر ربه ، فلم يسجد لآدم كما أمَره ، فلما حَلّ غضب الله عليه ، لم يرجع على نفسه باللائمة ، ولم يستشعر النّدم فيتوب كما تاب آدم ، بل غلبت عليه شقوته ، فقال :

(رب بِمَا أغْويتني لأُزَيِّنَنَّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين) (سورة الحجر : ٣٧)

وقد تَلَقّى كثير ممن غلب عليهم الشقاء من بني آدم ، هذه الحجة الضالة عن إبليس ، فتخلّوا عن كل خَير ، وغَرِقوا في كل ضلال ، وبَين أيديهم هذه الحجة الخادعة ، التي يُرَددونها عِند كلِّ قولة ناصح ، يَنصح لهَم ، ويدعوهم إلى الإيمان والهدى ، فيقولون ما ذكره الله عنهم في قوله تعالى : (لو شاء الله ما عَبَدْنَا مِن دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء) (٣٥ : النحل) وقوله سبحانه : (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) (١٤٨ : الانعام) وقوله جلّ شأنه : (وإذا قيل لهم أنفقوا مِمّا رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو شاء الله أطعمه) (٤٧ : يس)

انظر كيف يفترون على الله الكذب ؟ يؤمنون بقضائه وقدره ، ويحتجون بمشيئته ، ثم يكفرون به ؟

فالذين يحتجون بالقدر هذا الاحتجاج ، لا يؤمنون بالله ، ولو آمنوا بالله لآمنوا بقضائه وقَدَره ، ولا امتثلوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ...

فالقول بأن « لو شاء الله ما أشركوا » قول حق ، ولكنه لا يَصْدر عن القائلين به لتقرير عموم إرادة الله وشمول مشيئته ، ولو كان هذا هو مُتَوَجّه قولهم لكان ذلك إيماناً خالصاً .. فالله سبحانه وتعالى يقول : (ولو شاء ربّك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً) (٩٩ : يونس) ولو كانوا مؤمنين بالله حقاً لآمنوا بما جاءهم به رسل الله ، من حساب وجزاء في الآخرة بما يعملون .

ولكنهم يقولون هذا القول في سفسطة خبيثة ، تهوى بهِم إلى مهاوي الهالكين ..

ولهذا أنكر الله عليهم قولهم الذي قالوه في مشيئته ، لأنهم — كما يقول ابن القيم — (لم يذكروا ما ذكروا إثباتاً لقدرة الله وربوبيته ووحدانيته ،

وافتقاراً إليه ، وتوكلاً عليه ، ولو قالوا ذلك لكانوا مصيبين ، وانما قالوه معارضين لشرعه ، ودافعين لأمره ، فعارضوا أمره وشرعه ودفعوه بقضائه وقدره) .

وأكثر من هذا ، فإنا اذا تجاوزنا بهذه القضية – قضية الجبر والاختيار – لو تجاوزنا بها الحساب والجزاء الأخرويين ، لما انتهى موقف الناس فيها إلى غاية سواء في موقف الانسان من نفسه ، أو في موقفه من المجتمع ، وموقف المجتمع منه .. فإذا قصر الانسان في أمر من أموره الخاصة وعاد عليه هذا التقصير بالخسران والضرر ، فكيف يكون موقف هذا الإنسان من نفسه ، وحسابه معها ؟ انه لو كان قدرياً ، أي يؤمن بأنه قادر على خلق أفعاله ، وأن أية قوة خارجة عنه لم تؤثر في أفعاله إيجاباً أو سلبا – لو كان كذلك لكان حسابه لنفسه عسيرا ، ولأخذها باللوم والتعنيف ، إذ أنه يرى أنه كان قادراً فقصر ، وكان عالما فلم يعمل بما علم .. أما إذا كان جبرياً ، أي مؤمناً بأنه أداة مسخرة لقوة قاهرة لا يعمل الا ما تمليه عليه وتوجهه إليه – فإنه حينئذ يتقبل الأمور التي تقع منه على علاتها ، دون أن يراجع نفسه أو يحاسبها .. ولكن الذي يحدث في كلا الحالين أن الإنسان يحاسب نفسه ويلومها أشد اللوم ، ولا يقيم لها عذراً في أي حال على تقصير كان منه ..

هذا عن الإنسان مع نفسه .. اما مع المجتمع الذي يعيش فيه ، فإن كان مجتمعاً قَدَرِّياً حاسبه حساباً عسيراً ، دون أن يلتفت إلى أي ظرف خارجي ، يخفف عنه حمل مسئولية ما اقترف من آثام ، وان كان في مجتمع جبري ، أطلق له العنان ، ولم يأخذه بأية جريرة فعلها ، أو جناية جناها ..

ولأن الحياة – في أي مجتمع من المجتمعات – لا يمكن ان تستقيم الا اذا كان هناك وازع يزع المعتدين على حقوق الناس ، ويأخذ المجرم بجرمه – فقد كان للجماعات من اعرافها ، وعاداتها وتقاليدها وكان لها قوانين ملزمة واحكام رادعة ، مرصودة لكل جريمة .. وذلك قبل أن

يعرف الناس القوانين السماوية التي فيها العقاب والزجر للخارجين على ناموس الجماعة .. ومع هذا ، فإن القوانين الوضعية ــ وبمنأى عن الدين ــ لم تغفل عن هذه الحقيقة ، وهي أن الإنسان حر حرية مطلقة في كثير من تصرفاته ، كما أنه كثيراً ما تقع إرادته تحت ظروف قاهرة ، تبطل مفعول إرادته ، أو تضعفه .. ومن هنا تواردت على الجرائم التي يرتكبها الناس في بعض الأحوال ، عناصر مخففة ، تحمل عن الإنسان بعض المسئولية .. كالقتل في أحوال الدفاع عن النفس ، أو العرض ، أو المال ، وكالسرقة في أحوال المجاعات .. وكل هذا ونحوه منظور فيه إلى الحال النفسية المستولية على الإنسان ، وهو مقدم على ارتكاب الجريمة ــ وتلك الأحوال هي في الواقع عنصر من عناصر الجبر الذي يتدخل بقدر كبير أو صغير في إرادة الانسان ، فيكون ذلك داعياً إلى تخفيف العقوبة عنه .

أباطيل بعض المتصوفة

ولبعض المتصوفة فلسفة مريضة ، تذهب بهم هذا المذهب الأعوج الأهوج ، الذي يقود إلى الضلال والهلاك .. إنهم يَنْسبون إلى الله كل شيء من طاعات وسخافات معاً .. إن كل ما يفعلونه حسن ، لأنهم ــ حسب تصورهم المخبول ــ لا يعملون شيئاً ، وإنما هم ينفذون إرادة الله ومشيئته .. فكل أعمالهم طاعات ، وكل سخافاتهم قربات ، حتى ليقول قائلهم مخاطباً ربه في غير حياء :

أصبحتُ مُنْفَعلا لِما تختاره ... مِني ، ففعلي كلُّه طاعَاتُ

فهذا الغبي الأحمق ، هو منفعل ــ كما يقول ــ وليس فاعلاً .. وليته انفعل بالطاعات .. وإنما هو منفعل بما يمليه عليه شيطانه الذي يوسوس له ،

حين يفطر رمضان ، وهو منفعل بمشيئة الله ، أو حين يترك الصلاة عمدا ، أو حين يشرب الخمر ، ويأتي كل فاحشة جهارا في غير حياء !

فهو في تلك الأحوال – كما زين له الشيطان – قائم في محراب العبادة ، لأنه ينفذ ارادة الله ويحقق مشيئته .. والله سبحانه وتعالى يقول (كذلك زُين للمسرفين ما كانوا يعملون) (١٢ : يونس) ..

طريق المؤمنين

اما المؤمنون حقاً فمدعوون إلى الإيمان بقضاء الله وقدره .. فالله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء قدير ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ..

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : لما نزل قوله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم :

(إنْ هو إلاّ ذِكْرٌ للعالَمين لِمن شاء منكم أن يستقيم) (التكوير : ٢٩) قالوا – أي المؤمنون – (الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن لم نشأ لم نستقم) فأنزل الله عز وجل : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) (سورة التكوير : ٢٩) ..

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله تعالى : « كَمَا بدأكم تعودون ، فريقاً هَدَىَ وفريقاً حقّ عليهم الضلالة » .. قال (وكذلك خلقهم حين خلقهم : مؤمناً وكافراً ، وسعيداً وشقياً ، وكذلك يعودون يوم القيامة ، مهتدين وضلاّلا) ..

وقال مالك بن أنس : (ما أضل من كذب بالقدر ، لو لم يكن عليهم حجة إلا قوله تعالى : « هو الذي خلقكم فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمن » التغابن : ٢) لكفى بها حجة ..

وعن أبي حازم ، قال : قال الله عز وجل : « ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها» (الشمس: ٧ — ٨) أي فالتقي ألهمه التقوى ، والفاجر ألهمه الفجور .

ويقول الرسول الكريم : « لا يؤمن أحدكم حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه » ..

وكان الحسن البصري — رضي الله عنه — يقول : « من كذب بالقدر فقد كذب بالحق ، إن الله عز وجل ، قدّر خلْقاً ، وقدر أجلا ، وقدر بلاء ، وقدر مصيبة ، وقدر مُعافاة .. من كذب بالقدر فقد كذب بالقرآن ..

فالإيمان بالقدر ، والتسليم بالمقدور والرضا به ، هو الصميم من الإيمان وهو دعوة الإسلام ، وهو سبيل المؤمنين ، وبغير هذا لا ينعقد إيمان ، ولا يكمل دين .

يقول ابن تيمية في كتابه : « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » :

« وما قدّر — الله تعالى — من المصائب ، يجب الاستسلام له ، لانه من تمام الرضا بالله ربّا .. وأما الذنوب ، فليس للعبد أن يُذنب ، وإذا اذنب فعليه أن يستغفر .. فيتوب من المعايب ، ويصبر على المصائب »...

« فإذا عمل العبد بطاعة الله عزّ وجل علم أنها بتوفيق الله ، فيشكره على ذلك ويحمده ، وإذا عمل بمعصية ندم على ذلك ، وعلم أنها بمقدور جرى عليه فندّم نفسه ، واستغفر ربه .. وليس لأحد على الله حجة ، بل لله الحجةُ على خلقه « قل فللّه الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين » (سورة الأنعام : ١٤٩) .. فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق كما شاء ، فجعلهم شقياً وسعيداً ، قبل أن يخرجهم إلى الدنيا : « لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون » (٢٣ : الأنبياء) .. »

وعلى هذا ، فمطلوب من العبد أن يقول في كل ما يقع له ، أو يقع منه : هذا بقضاء الله ، ومشيئة الله .. يقول ذلك عن يقين لا شك فيه ، فذلك هو الإيمان الذي يشدّ عزَمَات الإنسان في الشدائد ، ويعينه على الحق ، ويجعل منه إنساناً غير ضائع في الحياة .. إن زَلّ فذلك بقَدَر سابق ، ولكن يجب أن يرى نفسه في هذه الحال في موقف لا يَرْضَى الله عنه ، فيبادر بالانسحاب من هذا الموقف بكل ما لديه من قوة وعزم وإيمان ، مستعيناً بالله ، تائباً إليه ، نادماً على ما وقع منه ، فتلك هي سبيل المؤمنين ، الذين يقول الله فيهم : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنّات تجري من تحت الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » (١٣٥ – ١٣٦ : آل عمران) ..

يقول ابن تيمية : في كتابه : « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » : « كل من احتج بالقدر فإنه متناقض .. فإنه لا يمكن أن يترك كلّ آدمي يفعل به ما يشاء .. فلا بد إذا ظلمه ظالم أن يدفع هذا القَدَر ، وأن يعاقب الظالم بما يكفّ من عدوانه ، وعدوان أمثاله ، فيقال له – أي للمحتج بالقدر – : « ان كان القدر حجة ، فدع كلّ واحد يفعل بك ما يشاء ، وان لم يكن حجة ، فبَطل قولك : إن القدر حجة ... » .

ثم يقول : « وأصحاب هذا القول الذين يحتجون بالحقيقة الكونية (أي القدر) لا يَطّرِدون هذا القول ولا يلتزمونه ، إنما هم يتبعون آراءهم وأهواءهم ، كما قال فيهم بعض العلماء : « أنتَ عند الطاعات قَدَري ، وعند المعصية جبرى » ، أ. هـ.

إن الأخذ بالأسباب ، هو مما يقوم عليه نظام الحياة ، وتشير به الحكمة ، ويقضي به العقل ، ومن ترك الأسباب فقد ألغى عقلَه ، وأفسد وجوده ، وأدخل الخلل على حياته .. إن الحيوان الاعجم لا يَرْضى هذه المنزلة التي

صارَ اليها من يحتج بالقدر ! ! ان الحيوان يَدْفع الجوع بالأكل الذي يَطْلبه ويَسْعَى إليه ، وينال منه ، ويدفع الظمأ بالماء ، يَرِد موارده ، ويلتمس مواطنه ، ويمدُّ فيه إليه ، ويتّقِي العدُوّ المتربص به ، بكل سلاح يقدر عليه ، فيقاتل بقرونه ، وأنيابه ، ومخالبه ، وأظفاره .. وبكيانه . وان هو رأى من نفسه العجز عن لقاء عدوه ومدافعته ، طلب النجاة فراراً ، وهربا .

فالإنسان الذي يُعَطّل جوارحه ، ويُميت مشاعره ، ويُلقي بنفسه في منامة العجز والتواكل ، محتجاً بأن ما قدر له سيقع ، سواء سعى أو لم يسع — هذا الانسان ليس أهلا لان يعيش في الناس ، أو يحسب في الأحياء ..

تَرْجو النجاة ولَمْ تسلكَ مسالكها   إن السفينةَ لا تجري على اليبَس

سأل بعض الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا رسول الله : أرأيتَ أدوية نتداوى بها ، ورُقى نَستْرقي بها ، وتُقى نتقي بها .. هل تَرُدّ من قدر الله شيئاً ؟ فقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « هي من قدر الله »[1] أي أن هذه الأمور التي يتخذها الناس وقاية مما قد يعرض لهم ، هي من قدر الله . ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ابن العاص ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كتب على مقادير الخلائق ، قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » .

فالاسباب من قَدَر الله ، كما أن المسببات من قدر الله .. فمن لم يأخذ بالأسباب إلى مسبباتها ، فقد آمن وكفر ، وذلك نفاق أشد من الكفر .

يقول جعفر الصادق : « إن الله تعالى أراد بنا شيئاً ، وأراد منّا شيئاً فما أراده بنا طواه عنّا ، وما أراده منّا أظهره لنا ، فما بالنا نَشْتَغِل بما أراده بنا عمّا أراده منا ؟ » وذلك هو مقطع القول في تلك القضية الشائكة !

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

إن الله تعالى أمرنا بأمور حددها الينا ، ونهانا عن أمور بيّنها لنا ، ومطلوب منا أن نأتي ما أمرنا به ، ونجتنب ما نهانا عنه ... ثم إنه سبحانه وتعالى له إرادة فينا أخفاها عنا ، ولا نَعْلم ما هي .. فالبحث عن هذا الذي قضت حكمة الله أن يخفيه عنا ، هو مَضَلّة للانسان ، ومضيعة له .

ونتهي هذا الحديث ، عن « مشيئة الله ، ومشيئة العباد » بما قرره « ابن تيمية » — رضي الله تعالى عنه — في كتابه : « الفرقان : بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » — فقد كشف ابن تيمية عن وجه هذه القضية ، كشفاً تبيض منه وجوه المؤمنين ، وتسود منه وجوه الكافرين ، والملحدين ، ومن كان على طريق الكافرين والملحدين ..

يقول ابن تيمية — رضي الله — عنه :

« وكثير من الناس تشتبه عليهم الحقائق الأمرية الدينية الإيمانية ، بالحقائق الخَلقيّة القدرية الكونية .. فإن الله تعالى له الخلق والأمر .. كما قال تعالى : « ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يُغْشِ الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا لَه الخلْق والأمر تبارك الله رب العالمين » (سورة الاعراف : ٥٤) .. فهو سبحانه رب كل شيء وخالقه ومليكُه ، لا خالق غيره ، ولا ربَّ سواه ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .. فكل ما في الوجود من حركة وسكون ، فبقضائه وقَدَره ، ومشيئته وقدرته وخَلْقه .. » .

هذا هو سلطان الله ، القائم على هذا الوجود ، خَلْقا وأمراً ، وتَدْبيرا ، وإعطاء ومَنْعا .. « والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » (سورة الرعد : ٤١) .

ويقول ابن تيمية : « وهو سبحانه أمر بطاعته وطاعة رُسله ، ونهى

عن معصيته ومعصية رسله .. أمر بالتوحيد والإخلاص ، ونهى عن الإشراك بالله ، فأعظم الحسنات التوحيد ، وأعظم السيئات الشرك ، قال تعالى : « إن الله لا يغفر أن يُشْرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (سورة النساء : ١١٥) وقال تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يُحبّونهم كحُب الله ، والذين آمنوا اشد حُباً لله » (سورة البقرة : ١٦٥) وفي الصحيحين عن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : قلت يا رسول الله .. أيُّ الذنب أعظم ؟ قال : أن تجْعل لله نداً ، وهو خلقك .. قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقْتل ولدك مخافة أن يُطْعم معك .. قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزْني بحليلة جارك » فأنزل الله تصديق ذلك في قوله سبحانه : « والذين لا يدْعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزْنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخْلُدْ فيه مُهانا ، إلا من تاب وآمن وعمِل عملاً صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيما » (الفرقان : ٦٨ — ٧٠) .

ثم بعد أن يقرر ابن تيمية ، رضي الله عنه ، حقيقة الإيمان بالله على هذا الوجه الذي لا يخالطه شيء من الشرك ، أخذ يتحدث عن القضاء والقدر ، ووجوب الإيمان بهما ، والرضا والتسليم بما يقع للعبد منهما ، حيث لا يكمل إيمان المرء بالله ، اذا هو لم يؤمن بقضاء الله وقدره فيه ..

يقول ابن تيمية — رضي الله عنه — فيما يجب على المؤمن بالله وجوب الايمان بقضائه وقدره « ومن ظنّ أن القدر حجة لأهل الذنوب ، فهو من جنس المُشركين ، الذين قال الله تعالى عنهم « سيقول الذين أشركوا ، لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » (سورة الإنعام : ١٤٨) وقال تعالى رداً عليهم : « كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علْم فتخرجوه لنا إن تتّبعون إلاّ الظن وان

أنتم تخرصون ، قل فلله الحجة البالغة ، فلو شآء لهداكم اجمعين » (سورة الانعام : ١٤٨ — ١٤٩).. ولو كان القدر حجة لأحد ، لم يُعذّب الله المكذبين للرسل ، كقوم نوح ، وعاد ، وثمود، والمؤتفكات وقوم فرعون، ولم يأمر بإقامة الحدود على المعتدين .

ثم يقول ابن تيمية — رضي الله عنه — : « ولا يحتج أحد بالقدر ، إلا إذا كان متُتّبعاً لهوا ، بغير هدى من الله .. ومن رأى القدر حُجة لأهل الذنوب ، يرفع عنهم الذّنب والعقاب ، فعليه ألا يذم أحداً ولا يعاقبه إذا اعتدى عليه ، بل يستوي عنده ما يُوجب اللّذة وما يُوجب الألم ، فلا يفرق بين مَن يفعل مَعه خيراً ، ومن يفعل به شراً .. وهذا ممتنع طَبْعاً ، وعقلا ، وشَرعا .. وقد قال تعالى : « أم نَجْعَل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتّقين كالفجار » (سورة ص : ٢٨) وقال تعالى : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، ما لكم كيف تحكمون ؟ » (سورة ن : ٣٥) وقال تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نَجْعَلَهم كالّذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواءٌ محياهُم ومماتهُم ، سآء ما يحكمون » (سورة الجاثية : ٢١) وقد ثَبَت في الصحيحين، عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « احتج آدم وموسى — أي أراد كل منهما أن يقيم الحجة على صاحبه — قال موسى : يا آدم ، أنت أبو البشر خَلَقك الله بيده ، ونَفَخَ فيك من روحه ، وأَسْجَدَ لك ملائكته ، أخرجتنا ونَفْسَك من الجنة [1] ؟ فقال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه ، وكَتَبَ لك التّوراة بيده ، فكيف وجدت مكتوباً عليّ قبل أن

---

(١) اي بسبب المعصية التي عصى بها آدم ربه ، حين أكل من الشجرة التي نهاه الله تعالى عنها ..

أخلق : « وعصى آدم ربه فغوى » ؟ قال : بأربعين سنة [1] .. قال : فلِمَ تَلُومني على أمرٍ قدره الله عليّ قبل أن أخلق بأربعين سنة ؟ قال : فحج آدم موسى » أي غلبه .

ثم يعلق ابن تيمية — رضي الله عنه — على هذا الحديث ، فيقول :

« وهذا الحديث ضلت فيه طائفتان : طائفة كذبت به — أي بالقدر— لـمّا ظنوا أنه يقتضي رَفْعَ الذم والعقاب ، عمن عصى الله ، لأجل القدر — هؤلاء هم الجبرية من المعتزلة : ومن سلك طريقهم — وطائفة شر من هؤلاء — وهم القدرية من المعتزلة — لم يجعلوا القدر حجة ، — لأنهم يقولون إن العبد خالق لأفعاله ، خيرها وشرها .. ومن قائل — في هذا الحديث : إنما حَجّ آدم موسى — أي غلبه — لأنه أبوه ، أو لأنه قد تاب ، أو لأن الذّنب في شريعةٍ ، واللوم في أخرى ، أو لأن هذا يكون في الدنيا دون الأخرى .. وكل هذا باطل ..

« ولكن وجه الحديث : أن موسى — عليه السلام — لم يَلُمْ أباه إلا لأجل المصيبة التي لحقتهم — أي ابناء آدم — من أجل أكْلِه من الشجرة ، فقال له : لماذا أخرجتنا أنت ونفسك من الجنة ؟ ولم يلمه لمجرّد كونه أذنب ذنباً ، وتاب منه ، فإن موسى يعلم أن التائب من الذنب لا يلام ، وقد تاب آدم من ذنبه .. ولو كان آدم يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدر ، لم يقل : « ربّنا ظَلَمْنَا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » (سورة الاعراف : ٢٢) ..

---

(١) لعلها — والله أعلم — ليست من السنين الدنيوية ، فتكون من السنين الكونية ، التي اليوم فيها بألف سنة من سني هذه الحياة ، كما يقول تعالى : « وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » ..

ثم يقول ابن تيمية – رضي الله عنه – :

« والمؤمن مأمور عند المصائب أن يَصْبر ويُسَلِّم ، وعند الذنوب أن يستغفر ويتوب ، قال الله تعالى لرسول الكريم – صلوات الله وسلام عليه – « فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك » (سورة المؤمن : ٥٥) فأمره بالصبر على المصائب ، والاستغفار من المعائب .. قال تعالى : « ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يُؤمن بالله يَهْدِ قلبه » (سورة التغابن : ١١) .

قال ابن مسعود – رضي الله عنه – في معنى هذا الحديث : هو الرجل تصيبه المصيبة يعلم أنها من عند الله ، فيصبر ويُسلّم .. وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم ، الفرق بين الإرادة والأمر ، والقضاء ، والإذن ، والتّحريم ، والبعث ، والإرسال ، والكلام ، والجعْل ، كما فرق بين الكونيّ الذي خلقه وقدّره ، وقضاه ، وان كان لم يأمر به ولا يحبه ، ولا يثيب أصحابه ولا يجعلهم من أوليائه المتقين ، وبين الدين الذي أمر به ، وشَرّعه وأثاب عليه فاعليه ، وأكرمهم ، وجعلهم من أوليائه المتقين ، وحزبه المفلحين ، وجنده الغالبين ..

ثم يشرح ابن تيمية – رضي الله عنه – الإرادة الكونية ، والأمر الديني ، ويبين الفرق بينهما ، فيقول :

فالإرادة الكونية : هي مشيئة الله لِمَا خلقه ، وجميع المخلوقات داخلة في مشيئته وإرادته الكونية ..

والإرادة الدينية : هي المتضمنة لمحبته ورضاه ، المتناولة لِما أمر به ، وجعله شرعاً وديناً ، وهذه مختصه بالإيمان ، والعمل الصالح ..

قال تعالى في الإرادة الكونية : « فمن يُرِد الله أن يهديه يَشْرَح صَدْرَه للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضَيِّقاً حرَجاً ، كأنما يَصَّعّد في السماء » (سورة الانعام : ١٢٥) وقال نُوح – عليه السلام لقومه – :

« ولا يَنْفَعكم نصحي إن أردت أن انصح لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون » (سورة هود : ٣٤) وقال تعالى : « وإذا أرَادَ الله بِقوم ٍ سوءاً فلا مَردَّ له ، وما لهم من دونه من والٍ » (سورة الرعد : ١٢) ..

وقال تعالى في الإرادة الدينية : « ومن كان منكم مريضاً أو على سفر ، فعدة من أيام أُخر يريد الله بكم اليُسرْ ولا يريد بِكم العُسْر » (سورة البقرة : ١٨٥) .. وقال في آية الطّهارة : « ما يريد الله ليَجْعَلَ عليكم في الدّين من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتّم نِعْمَتَه عليكم لعلكم تَشكرون » (سورة الحج : ٧٨) .. ولما ذكر سبحانه ما أحله وما حرّمه من النكاح قال : « يُريد الله ليُبين لَكم ويَهْدِيَكم سُنَنَ الذين من قبلكم ، ويتوبَ عليكم ، والله عليم حكيم ، والله يريد أن يَتُوبَ عليكم ، ويُريــد الذين يَتّبعون الشهوات أن تميلوا ميـلاً عظيماً ، يُريد الله أن يخفف عنكم ، وخُلق الانسان ضعيفاً » (سورة النساء : ٢٦–٢٨) .

اما الأمر الكوني

فيقول الله تعالى فيه : « إنما أمرنا لِشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (سورة النحل : ٤٠) ويقول سبحانه : « وما أمرنا إلاّ واحدة كَلَمْح بالبصر » (سورة القمر : ٥٠) .. ويقول تعالى : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها . أتاها امرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْن بالأمس » (سورة يونس : ٢٤) ..

وأما الأمر الديني :

فيقول الله تعالى فيه : « إن اللهَ يأمر بِالعَدل والإحسان وإيتاء ذي القُربى ويَنْهى عَن الفحشاءِ والمُنكر والبَغي ، يَعظكم لَعلكم

تَذَكَّرون » (سورة النحل : ٩٠) ويقول سبحانه : « إن الله يأمركم أن تُؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن اللهَ نعِمّا يَعظِكم به .. إن الله كان سميعاً بصيراً » (سورة النساء : ٥٧) .

وأما الإذن الكوني :

فيقول الله تعالى فيه : « وما هم بِضَارين بِه من أحَدٍ إلاّ بإذن الله » (سورة البقرة : ١٠٢) أي بمشيئته وقدرته وإلا فالسْحر لا يُبيحه عز وجل .

وأما الإذن الديني :

فيقول الله تعالى فيه : « أم لهم شركاء شَرّعوا لَهم مِنَ الدّين ما لم يأذن به الله » (سورة الشورى : ٢١) ويقول سبحانه : « وَما أرسلنا مِنْ رسول إلاّ لِيُطاع بإذن الله » (سورة النساء : ١٣) ويقول تعالى : « ما قطَعْتُمْ مِن لِينةٍ أو تركتموها قَائمةً على أصولها ، فبإذن الله » (سورة الحشر : ٥) ..

وأما القضاء الديني :

فيقول تعالى فيه : « وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه » (سورة الإسراء : ٢٣) أي أمر ، وليس المراد به أنه قدّر ذلك ، فإنه قد عُبِدَ غيرُه سبحانه ، كما أخبر في غير موضع ، كقوله تعالى : « وَيَعبدُون من دون الله ما لا يَضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هَؤلاء شفعاؤنا عند الله » (سورة يونس : ١٨) وقول الخليل عليه السلام لقومه : « أفرأيتم ما كنتم تَعْبدون أنتم وآباؤكم الأولون ، فإنهم عَدُوٌّ لي ، إلا رَبَّ العالمين » (سورة الشعراء : ٧٥ — ٧٧) .. وَمن ظن مِن الملاحدة أن هذا رضى من سبحانه بدين الكفــار فهو من أكذب الناس واكفرهم ، كمن ظن أن

قوله : « وقضى ربك » بمعنى قدّر ، وان الله سبحانه ما قضى بشيء إلا وقع ، وجَعَل عُبّادَ الأصنام ما عبدوا الا الله [1] ، فإن قائل هذا من أعظم الناس كفراً بالكتب السماوية ..

وأما البعث الكوني :

فيقول الله تعالى فيه : « فإذا جاء وَعْد أولاهما بَعَثْنَا عَليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً » (سورة الإسراء : ٧٥) ..

وأما البعث الديني :

فيقول تعالى فيه : « هو الذي بَعَثَ في الأميّين رَسولاً منهم يتلو عليهم آياتــه ، وَيزكّيهم ويُعلِمهم الكتــابَ والحكمة » (سورة الجمعة : ٢) ويقول سبحانه : « ولقد بعثنا في كل أمة رَسولاً ، أنِ اعْبدَوا الله واجتنبوا الطاغوت » (سورة النحل : ٣٦) ..

وأما الإرسال الكوني :

فيقول الله تعالى فيه : « ألَم تَر أنّا أرسلنا الشّياطين على الكافرين تَؤُزّهم أزّاً » (سورة مريم : ٨٣) ويقول سبحانه : « وهو الذي أرسل الرّياحَ بُشْراً بَيْن يَدَي رحَمْته » (سورة الأعراف : ٥٧) .

وأما الإرسال الديني :

فيقول الله تعالى فيه : « يا أيها النبي إنا ارسلناك شَاهداً ومُبَشّراً وَنَذيراً » (سورة الاحزاب : ٤٥) ويقول سبحانه : « إنا أرسلنا إليكم

---

(١) وهذا ما يدين به ابن عربي ، الشيخ الأكبر للصوفية ، انظر كتابه « فصوص الحكم » ففيه من هذا الكفر ما يجمع مذاهب الكافرين والملحدين جميعاً .

رسولاً شاهداً عليكم كمَا أرسلنا ، الى فرعون رسولاً » (سورة المزمل : ١٥) ..

وأما الجعل الكوني :

فيقول الله تعالى فيه : « وَجَعَلْناهم أئمةً يَدْعون الى النار » (سورة القصص : ٤١) .

وأما الجعل الديني :

فيقول سبحانه فيه : « لكلٍّ جَعَلْنا منكم شِرْعةً ومِنها جا » (سورة المائدة : ٤٨) ويقول : « ما جعل الله من بَحيرَةٍ ولا سَائبةٍ ولا وَصِيلَةٍ ولا حَامٍ » (سورة المائدة ١٠٦) .

وأما التحريم الكوني :

فيقول الله تعالى فيه : « وحرَّمنا عليه الْمَرَاضع من قبل » (سورة القصص : ١٢) ويقول سبحانه : « فإنها محرمة عليهم أربعين سنةً يتيهُون في الارض » (سورة المائدة : ٢٩) .

وأما التحريم الديني :

فيقول الله تعالى فيه : « حُرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، ومَا أُهلّ لِغير الله به » (سورة المائدة) ويقول سبحانه : « حُرِّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم .. الآية » (سورة النساء : ٢٢) ..

وأما الكلمات الكونية :

فيقول الله تعالى فيها : « وصَدّقتْ بِكَلمات رَبّها وكتبه » (سورة التحريم : ١٢) وثبت في الصحيحين ، عن النبي ﷺ انه كان يقول : « أعوذ بِكَلمات الله التَامات كلّها من شرّ ما خَلَق ، ومن غَضبه وعِقابه وشَرّ عباده ، ومِنْ هَمزَات الشياطين ، وأن يَحْضُرونِ » ..

وأما كلماته الدينية :

فهي كتبه المنزلة ، وما فيها من أمره ونهيه ، فأطاعها الأبرار ، وعصاها الفجار ، وأولياء الله المتقون هم المطيعون لكلماته الدينية ، وجعله الديني ، وإرادته الدينية (١) .

* * *

وأود أن يتدبر المؤمن هذا القول ، وأن يمعن النظر فيه ، وان يقف المؤمن طويلاً عنده ، ففيه كشف فاضح لضلالات المبطلين المنازعين في القدر — ثبوتاً أو نفياً — حيث أتى ابن تيمية — رضي الله عنه — في هذا المقام بما يجب على المؤمن أنْ يعلمه من القدر وما يكون عليه موقفه منه .

والطريق الذي سلكه ابن تيمية الى هذا ، هو طريق واضح المعالم ، ظاهر الحدود .

فهناك لِلَّه تعالى ، إرادة ، وأمر ، وقضاء ، وإذن ، وتحْريم ، وبعْثٌ ، وإرسال ، وكلام ، وجعل ..

وهذه الأمور كلها : إما كونية ، أو دينية ..

فإذا كانت في مقام الكونيّ ، فهي لِلَّه تعالى وحده ، لَيْس لِلخَلق شيء فيها ، ولا حيلة معها .. إنها من شأن الله سبحانه ..

أمّا إذا كانت هذه الأمور في المقام الديني .. فهي — وان كانت لله سبحانه — فان للعباد شأناً بها ، وعملاً فيها ، وحساباً وجزاءً عليها ..

والذي يرجع الى الآيات القرآنية ، التي استشهد بها ابن تيمية للأمور الكونية ثم التي استشهد بها للأمور الدينية ، يرى أن ما كان كَوْنياً ، لا

---

(١) كتاب الفرقان ، بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لابن تيمية .

تكليف من الله تعالى للعباد به ، وان ما كان دينياً فالعباد مكلّفون به ، إن كان أمراً فعليهم اتباعه والعمل بمقتضاه ، وان كان نهياً ، وَجَب عليهم اجتنابه ، ومحاذرة الوقوع فيه .. ثم هم بعد ذلك – طائعين وعاصين – راجعون الى الكونيات التي هي لله وحده ..

ومن هذا نرى :

أولاً : أن الإنسان في الأمور الكونية غير مكلّف بشيء منها ، وإن كان عليه الإيمان بها .

وثانياً : أنه في الأمور الدينية ، مِمّا شَرَعه الله تعالى لِعباده وأمر به ، أو نهى عنه ، مُطالب بإتيان ما أمر الله تعالى به ، واجتناب ما نهى الله عنه .. وهو في تلك الحال يعمل بإرادته ، وقُدُراته ، دون ان يَشْهَد حائلاً يحول بينه وبين ما يريد ..

وثالثاً : أن الانسان صائر في النهاية الى الكونيات ، أي الى ما أراد الله وقدّره وإن جاء ذلك على خلاف ما أراد الإنسان وقدره ..

ومن هذا يبدو الإنسان ، وكأنه حر مختار في الظاهر ، مقيد مضطر فيما وراء هذا الظاهر .. فهو حرٌ مطلق من جهة ، مُقَيّد مُسير من جهة اخرى .. ثم هو صائر آخر الأمر الى ما قضى الله وقدر ..

وإذن ، فالإنسان يعمل في منطقة محددة ، هي دائرة اختصاصه ، وما يمليه عليه عَقْلُه وتفكيره ، وما تَدْعوه اليه نوازعه ، وتطلّعاته .. ثم هو في هذه الدائرة داخل في حكم الدائرة الكونية المطلقة العامة الشاملة ، لا يخرج عنها ابداً ..

ويبقى السؤال الخالد : هل الإنسان مخير أو مسير ؟ هل له ارادة ومشيئة مع إرادة الله ومشيئته ؟ .

والجواب هو : الإنسان مخير ، ومُسيّر معاً .. مخير في الظاهر ،

ومسير فيما وراء هذا الظاهر .. وله إرادة ومشيئة ، ولكنها من إرادة الله ومشيئته : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رَبُّ العالمين » (التكوير : ٢٩) .

فالإنسان يعمل بإرادة ومشيئة ، هي من ارادة ومشيئة الله .. ولكنه لا يعلم ما مشيئة الله وإرادته فيما يُقَدِّم عليه من عمل ؛ إلا بعد أن يزاول العمل ، ويَفْرُغ منه .. فإن فَرَغ منه — على أية صورة كان — فذلك هو قَدَر الله ومشيئته ، وعلى المؤمن أن يرضى بما شاء الله وقدّر ، فإن كان على البرّ والطاعة والإحسان ، حَمِدَ الله ، وشَكَر له ، وطلب المزيد من التوفيق على هذا الطريق ، وإن كان مما عصى الله تعالى به ، وتعدّى حدود الله فيه ، نَدِمَ عَلَى ما فَرَّط مِنه ، ورَجع الى ربه نادماً تائباً مستغفراً من هذا البلاء ، وسأل الله العافية منه ، والرجوع من هذا الطريق الى غير عودة .. وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض وَلا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نَبْرأها ، إن ذلك على الله يَسير ، لكيلا تَأْسوْا عَلَى ما فاتكم ، ولا تَفْرَحوا بِمَا آتاكم ، والله لا يُحبُّ كلّ مختال فخور » (سورة الحديد : ٢٢ — ٢٣) .. ذلك هو سبيل المؤمن ، ومِلاك أمره في السراء والضراء .. لا يأسَى على فَائت ، ولا يَخْتال ولا يَبْطَر بِمَا ملك .. بل عليه الرضا في الحالين ، وذلك بالصبر على الضَرّاء ، والحمد في السراء ..

فالعبد مأمور بأن يجاهد أهواء نفسه ، ووساوس شيطانه ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، بسلاح الإيمان والخشية لله ، ويَدفع ما قَدّر الله عليه من المعاصي بما يَقْدر عليه من الطاعة ، فينازع المقدور المحظور ، بالمقدور المأمور به من الله تعالى ، وهذا هو دين الله الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ..

ولعل مقطع الحق في هذه القضية تلك الكلمة البليغة الموجزة الجامعة للامام جعفر الصادق — رضي الله عنه — والتي اشرنا اليها خلال هذا

البحث ، إذ يقول الامام جعفر : « إن الله تعالى أراد بِنَا شيئاً ، وأراد مِنّا شيئاً ، فما أراده بِنَا طواه عنّا ، وما أراده مِنّا أظهره لنا ، فما بَالنا نَشْتغل بما أراده بِنَا عما أرادَه منا ؟ » .

ومعنى هذا ، ان ما اراده الله تعالى بنا ، وشاءه فينا ، هو غَيْب مُحجّبٌ عنّا ، ومِن الْعناء والضلال عنه ، او الوقوف عنده ، لأننا مَهما أجْهدنا أنفسنا لم نعلم مِنه شيئاً .. وإنه بدلاً من هذا الجهد الضائع الذي نَبذله في البحث عن القدر والمشيئة ، والإرادة الالهية ، ينبغي أن نصرف جهدنا كله الى العمل في طاعة الله ، والفوز بالحياة الطيبة في الدنيا والآخرة : « وقُل اعْملوا فَسَيَرى الله عملكم وَرسولُهُ والمؤمنون ، وستُرَدّون الى عالم الغيبِ والشّهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون » (سورة التوبة : ١٠٥) .

وإذا كنّا قد ذكرنا كثيراً من آيات الكتاب الكريم ، والاحاديث النبوية ، وفيها تقرير لإرادة الله المطلقة ، ومشيئته العامة الشاملة ، فإن ما جاء في القرآن الكريم من قصة موسى والعبد الصالح ، بيان عَمَليٌ من واقع الحياة ، في مسيرة القدر بالناس وسلطانه الغالب لهم ، وإنه لو انكشف الغطاء للإنسان عن المستقبل القريب أو البعيد لدارت رأسه ، ولَجَمد في مكانه لا يتحرك ولا يعمل .. ولكن كان من رحمة الله بنا ان اخفى عنّا وقائع القدر حتى تقع ، وبهذا نظل في سعي وعمل ، منتظرين نتائج ما نسعى اليه ، ونعمل لأجله .

ولهذا ، فإنا سنعرض قصة موسى والعبد الصالح في إطارها القرآني ، ثم نقف بين يدي آياتها وكلماتها وقفات متأملة مُتدبرة ، نرجو أن نعود من بحرها الرحيب العميق بشيء من جواهره .

والله الموفق والمعين ، والهادي الى سواء السبيل ..

مسيرة القضاء والقدر
في قصة موسى والخضر

قال تعالى في سورة الكهف ، عن اللقاء القدري ، بين موسى والعبد الصالح :

١ – « وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ، أو أمضي حقباً ، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا ، فلما جاوزا قال لفتاة آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال أرأيت إذا أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجبا .

٢ – « قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً ، فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علما ، قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا ، قال إنك لن تستطيع معي صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ، قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمرا ، قال فان

اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شيء حتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنه ذِكْراً » .

٣ – « فانطلقا ، حتى إذا ركبا في السَّفينة خرَقَهَا ، قال أخرَقْتَها لِتُغْرِقَ أهْلَهَا لَقَد جئت شيئا إمْراً ، قال ألم أقل إنك لن تَسْتَطِيع مَعِي صَبْرا ؟ قال لا تُواخِذْني بما نَسِيت ولا تُرْهِقْنِي مِن أمري عُسْرا ، فانْطَلَقَا حتىّ إذا لَقِيا غُلاماً فقَتَلَه ، قال أقتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغير نَفْس لقد جِئْتَ شيئا نُكْرا ، قال ألم أقل لَكَ إنك لن تستطيع مَعِي صبرا ، قال إن سألتك عن شيء بَعْدَها ، فلا تُصاحِبْني قد بَلَغْتَ من لَدُنّي عُذْرا ، فانْطَلَقَا ، حتَّى إذا أتَيَا أهْل قَرْيَة اسْتَطْعما أهلَها فأبَوْا أن يُضَيِّفوهما فوَجدا فيها جِداراً يريد أنْ يَنْقَضّ فأقامه ، قالَ لو شئت لاتّخذتَ عليه أجرا ، قال هذا فِراقُ بيني وبَيْنك سأنبِّئُك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ..

٤ – أمّا السفينة فكانت لمساكين يَعْمَلُون في البحر فأرْدتُ أن أعيبها ، وكان وَرَاءهَم مَلِكٌ يأخُذُ كلَّ سَفِينة غَصْباً ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخَشِينا أن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وكفرا ، فأردنا أن يُبَدِلهُما رَبُّهما خَيْراً منه زكاة وأقْرَب رُحْمَا ، وأمّا الجدار فكان لِغُلامَين يتيمين في المدينة وكان تحته كَنْزٌ لَهُما ، وكان أبوهما صالحاً فأرَادَ ربُّك أن يبلغا أشدَّهُما وَيَسْتَخْرجا كَنْزَهُمَا ، رحمةً من ربك ، وما فعَلْته عن أمري ، ذلك تأويل ما لم تَسْطع عليه صبرا » .
(الآيات : ٦٠ – ٨٢ الكهف)

* * *

في هذه الآيات ، قِصة عجيبة ، وحَدَث عَجَب ، بَيْنَ موسى والعبد الصّالح . حيث تجري الأحداث في متّجه على غَيْر مألوفِ الحياة ، وما اعتاد الناس أن يُجْروا أمورَهم عليها .

وقبل أن نلتقي بآيات الله ، وما تُحدث به عن تلك القصة ، نودّ أن نشير إلى أمور :

أولها : أن هذه القصة لم تَذْكُرْها التّوراة .. ومن ثَمّ فقد أنكرها اليهود وأنكروا أن يكون « موسى » المذكور فيها هو موسى بن عمران رسول الله ... وهذا ما جَعَل كثيراً من المُفسرين يُقيمون لهذا الإنكار من اليهود وَزْنا ، ويَجْعلون من مقولاتهم عن « موسى » هذا ، أنه رجل آخر غير موسى بن عمران ، ثم يحاولون أن يجعلوا له نَسَباً لا يتفقون عليه .. فهو عند بعضهم موسى بن مِشْيَا بن يوسف بن يعقوب ، وعند آخرين ، هو موسى بن أفرائيم بن يوسف .. إلى كثير من تلك المقولات التي لا حدود لها في كتب المفسرين .

وهذا كله مردود على أهله ، سواء اليهود ، أو من جعل لمقولاتهم حسابا في هذا المقام .

فليس في القرآن الكريم أي ذكر في غير هذا الموضع لموسى ، غير موسى رسول الله ، فإذا ذكر « موسى » في أي موضع من القرآن ، فهو « موسى » رسول الله ما دام ذكره مجردا من كل وصف خاص ، يفرق بينه وبين موسى رسول الله .. ولو كان « موسى » هذا ، غيرَ نبي الله موسى ، لجاء القرآن في الحديث عنه بوصف خاص له يُميّزه عن موسى النبي ، وإلا كان هذا من التلبيس الذي يَتَنَزّه عنه كتاب الله . وليس إنكار اليهود حجة على القرآن ، وليس عدم ذكر هذه القصة في التوراة حجة على القرآن كذلك .. وذلك :

١ — أن القرآن مصدِّق للكتب السابقة — ومنها التوراة — ومُهيمن عليها .. فهي جميعها تَبَع له ، وليس هو تابعاً لها . كما يقول تعالى : «وأنزلنا عليك الكتاب بالحق، مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه» (المائدة : ٤٨)

٢ — أن التوراة قد دخلها كثير من التحريف ، والتبديل ، والحذف ، والاضافة ... وقد ذهب بهذا ما لها من حجة على أنها هي كتاب الله ، الذي يلتزم المؤمنون بكل ما جاء فيه.. كما يقول تعالى في اليهود : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم فيما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » (البقرة : ٧٩)

٣ — ليس كل ما جاء في القرآن عن موسى وقومه قد ذكرته التوراة ، وما ذكرته التوراة لا يتفق أكثره مع ما جاء في القرآن .. ومن ثمّ فلا وجه لاختصاص هذه الحادثة بالإنكار ، من جهة اليهود .. فقد أنكروا كثيراً مما جاء في القرآن من أحداث ، بل لقد أنكروا ما هو موجود فعلاً في التوراة مما تحدّث به القرآن من رَجْم الزاني كما أشار إلى ذلك قوله تعالى : «وكيف يحكّمونك وعندهم التوراة فيهــا حكم الله » (٤٣ : المائدة) . وأكثر من هذا ، فإنهم أنكروا ما في التوراة من وصف لرسول الله ، كما يقول تعالى : « الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة » (١٥٧ : الاعراف) .

٤ — هذه الحادثة أمر خاص بموسى ، ودرس من دروس العلم العالي ، الواقع على مستوى فوق مستوى الحياة الإنسانية .. وهو حَدَثٌ يمكن أن يقع لموسى أو لغيره من الناس ، نبيّاً كان أو ولياً من أوليــاء الله ، أو عبداً من عباده الصالحين .. ومع هذا ، فإن ذكر « موسى » مُجرّداً من كلّ صفة ، لا يعني إلا موسى الذي له ذكر في القرآن ...

وثانيها : هذه المقدمة التي تُمهد بها الآيات القرآنية لهذا اللقاء الذي وقع بين موسى والعبد الصالح ، يثير بعض التساؤلات ، كأن يقال :

ما داعية هذا الحوار الذي بين موسى وفتاه ؟ وما شأن هذا الحوت ؟ وما متعلّق القصة به ؟ وما هذه الصخرة التي جاوزها موسى وفتاه ثم عاد إليها ؟ وأخيراً : ماذا لو خلَت القصة من كل هذا ، ووقع اللقاء بين موسى والعبد الصالح من غير هذه المقدمات ؟ أفي ذلك ما يَذْهب بشيء

من مواقع العبرة والعظة التي جاءت القصة من أجلها ؟.

والجواب على هذا :

أولاً : ان القصة – كما قلنا ، وكما سنرى – تجري أحداثها في اتجاه على غير اتجاه المألوف للناس ، حسب تقديرهم وتفكيرهم .. وإذ كان موسى سيدخل في هذه التجربة ، وسيجري مع هذه الأحداث على صورة يرى فيها أنه يسير في وضع مقلوب ، حيث أنه يَمْشي القهقرى ، على حين أنه يريد أن يتجه إلى الأمام لغاية يقصدها إذ كان كذلك ، فقد كان من الطبيعي أن يُعاني شيئاً من هذه التجربة بنفسه ، ومع إنسان يُفكّر على مستوى تفكيره ، ويَجْري في الحياة على ما اعتاد الناس منها ، وهو فتاه الذي كان رفيق رحلته .

فموسى مع فتاه .. يسيران سيراً مُجْهِداً إلى غاية يَقْصدانها ، وهي الصّخرة التي سيَلتقي عندها موسى مع العبد الصالح .. ومع هذا يَمُرّان بتلك الصخرة ، ويأويان إليها ، ثم يجاوزانها ، حتى يجُهِدَهُما السير ... ثم ينكشف لهما فيما بعد أن هذه الصخرة ، هي الصخرة المطلوبة ، فيعودان إليها مرة أخرى .. ولو كان لموسى شيء من هذا العلم الذي سيكشفه له العبد الصالح ، لما دار هذه الدورة الطويلة ، ولما بذل كل هذا الجهد الضائع هو وفتاه .

إن موسى هنا يبحث عن حقيقة ماديّة وهي « الصخرة » ومع أن الصخرة كانت تحت قدميه ، فإنه لم يرَها ، ولم يتعرف عليها ... ولو رفع عنه حجاب الغيب للزم مكانه ، ولما سعى هذا السعي المجهِد .

وفي هذا دَرس بليغ للإيمان بالقَدَر المتحكّم في مصائر الناس .. وأنه لو انكشف للناس ما قُدِّرَ لهم لما سَعَوْا ، ولما تَحرّكوا ، ولجَمَدَت الحياة بالناس حيث هم .. لا يعملون ، ولا يتحركون .

وخذ مثلا (الغلام) الذي قتله العبد الصالح .. أترى لو انكشف لأبويه منه ما انكشف للعبد الصالح .. أكانا يبغيان الولد ؟ بل أكانا يتزوجان ؟ وقل مثل هذا في كلّ شأن من شئون الحياة ، خيرها وشرها .. أكان أحد يتحرك إلى غاية أبداً ؟ وكيف والغايات — بحكم القدر — تَطْلُبُ الناسَ ولا يطلبونها أما ونحن محجوبون عن أقدارنا ، فإننا — بحكم الرّغبة فينا — نَسْعَى إلى أقدارنا ونسلك إليها مَسالك مستقيمة أو مُعوجة .. حتى نبلغها .. وتلك هي سنة الحياة فينا ، والقوة الدافعة لنا إلى السعي والكفاح ..

يتحرك الناس ويتحركون .. ثم ينتهي بهم المَطاف إلى ما يَحْمدون أو ما لا يَحْمَدون .. ولو انكشفت لهم عواقب الأمور لوقفوا حيث هم ، ولما ركبوا المخاطر والأهوال.. ولكنهم — مع هذا — مدفوعون إلى اقدارهم، يركبون إليها كل هول وخطر .. وفي هذا يقول ابن الروميّ الشاعر العباسيّ المعروف :

أقدّم رجلا رَغْبَــةً في رَغيبةٍ	وأمسك أخرى رهبــةً للمعاطب
أخاف على نفسي وأرجُو مَفَازَها	وأستارُ غيبِ الله دونَ العواقب
ألاَ مَن يُريني غايَتي قبلَ مَذْهبي	ومن أين؟ والغايات بعدَ المذاهب

وثانياً : أن موسى يريد أن يُحصِّل علما .. والعلم هو أعظم وأكرمُ ما يطلبه الإنسان في الحياة ... وشأن العلم وتحصيله ، شأنُ كل ثمرة طيبة ، يريد الإنسان الحصول عليها .. لا بد لذلك من مجهود يُبذل ، وإنه على قدر الجهد المبذول ، تكون الثمرة التي تقع ليد الطالب .

ومن هنا كان على موسى إذن أن يبذل من جهده هذا الذي بذله، حتى يَصل إلى النّبع الذي يُريدُ أن يرويَ منه ظمأه ، ويَشْفي عنده غليله ، وينال طَلِبَته ..

أما الحوت ، فهو حَدَث عارض من أحداث هذا الموقف ، ولون

من ألوانه حتى تكتمل الصورة ، شأنه في هذا شأن الفتى الذي صحب موسى وشأن الصخرة وشأن البحر ... ولو لم يكن الحوت لكان هناك شيء آخر يقوم مقامه .

ونعود الآن إلى الآيات ، وسينكشف لنا عند النظر فيها ، ما يزداد به هذا القول بيانا ووضوحاً :

قوله تعالى :

« وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حُقُباً » ..

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، أن الآيات السابقة قد نَعَتَتْ على المشركين عِنادهم وضَلالهم ، وتأبّيهم عن الهُدى ، وقد جاءهم عَفْواً صفواً من غير أن يَسْعَوا إليه ، ويبذلوا الجهد في طلبه ، وقد كان جديراً بهم ، أن يطلبوا الهدى لأنفسهم ، وأن يبذلوا في ذلك الجهد والمال .. ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، سَفَهاً ، وعَقْلَةً ، فإذا جاءهم الهدى ، وطلبهم قبل أن يطلبوه ، ثم زَهِدوا فيه ، وردّوه ردّاً منكرا ، كان ذلك سَفَهاً فوق سَفه ، وعقلةً فوق عقلة ..

(انظر الآيات من : ٥١ — ٥٩) من سورة الكهف

وهذا نبي كريم من أنبياء الله ، هو موسى عليه السلام ، قد كلّمه ربه وأنزل عليه آياته وكلماته ، ومع هذا ، فهو لا يزال يطلب العلم ، ويجدّ في تحصيله ويبتغي المعرفة ، ويسعى للاستزادة منها ، كما يقول تعالى لنبيه الكريم : « وقل ربّ زدني علماً » (طه : ١١٤) .

وفي هذا ما يكشف عن مدى ما ركب سفهاء قريش وحَمْقَاها ، من جهل فاضح ، وكبر صبياني غشوم ، إذ كانوا يرون أنهم لا يحتاجون إلى علم ، حتى ولو كان هذا العلم يطرق أبوابهم ، ويدخل عليهم بيوتهم .

وقول موسى لفتاه : « لا أبرح حتى أبلغَ مجمع البحرين » .. يريد به أنه على نية صادقة ، وعزم وثيق ، من أمره هذا الذي هو متجه إليه ، وأنه لا ينقطع عن السير إليه حتّى يبلغه .. فمعنى لا أبرح أي لا أزال ، وهو فعل من أفعال الاستمرار ، وخَبَرُه محذوف ، تقديره لا أبرح سائراً أي لا أزال سائراً لا اتوقف عن السير حتى ابلغ مجمع البحرين ... ومجمع البحرين هو ملتقاهما ...

وقد اختلف في هذين البحرين .. ما هما ؟ وأين ملتقاهما ، أو مجمعهما؟

والذي أميل إليه ، أنهما خليج السويس ، وخليج العقبة ، وان ملتقاهما هو رأس شبه جزيرة سيناء عند طرفها الجنوبي ، حيث يتفرع عندها البحر الأحمر إلى فرعين يذهبان شمالا ويحصران بينهما شبه جزيرة سيناء ... فحيث كان افتراقهما يكون اجتماعهما .. أي هو مجمعهما ، وهو مجمع البحرين ...

ويقوّي هذا الرأي عندنا ، أن تَحرك موسى بعد خروجه ببني اسرائيل من مصر لم يجاوز شبه جزيرة سيناء ، حيث ضُرب فيها التيه على بني اسرائيل أربعين سنة .

ومن جهة أخرى ، فان رأس شبه الجزيرة الجنوبي صَخري ، تكثر فيه الصخور والآكام ، وتتشابه فيه معالم تلك الصخور ، الأمر الذي اختلط به على موسى وجه الصخرة التي كانت موعداً له مع هذا العبد الصالح ، الذي جدّ في طلبه ....

أما ما يذهب اليه بعض المفسرين من أنه « طنجة » حيث يلتقي البحر الابيض بالبحر المحيط الاطلسي ، فهو بعيد إلى حد الاستحالة .

وأين طنجة في الغرب ؛ وأين المحيط الأطلسي من الشرق مهبط الديانات ومسرح الأحداث التي تحدثت عنها الكتب السماوية ؟ إن كل ما جاء في الكتب السماوية من أحداث وأشخاص لم يخرج عن محيط تلك الرقعة

التي ظهرت فيها تلك الأديان .. فالقول بأن أحداث قصة موسى والعبد الصالح جرت في طنجة مثل القول بأن هذه الأحداث جرت في شيكاغو بأميركا ، أو في طوكيو باليابان ..

وأياً ما كان الأمر ، فإنه ليس بالبحرين ، أو لمجمعهما شأن كبير في مضمون القصة ومحتواها .. ومع هذا فإنه يجب ان يكون للعقل احترامه ، ولمنطق الأحداث وزنها واعتبارها ..

ــ وقوله تعالى : « أو أمضي حقبا » هو حكاية لقول موسى لفتاه ، وتتمة لما قاله له .. من أنه لا يزال هكذا سائراً حتى يبلغ مجمع البحرين ، وأنه إذا لم يبلغ مجمع البحرين ، ولم يهتد السبيل إليه ، فسيظل ماضياً في سيره ، لا يتوقف أبداً .. وفي هذا ما يشير إلى أن موسى ــ عليه السلام ــ وهو يطلب مجمع البحرين ، لم يكن يعلم على سبيل القطع واليقين أين يجتمع هذان البحران وإنما هو يتَظَنّى ذلك ظَنّاً ..

وهذا ما يكشف عنه قوله « لا أبرح » التي تفيد أنه لا يكف عن الطلب والبحث .. وأما قوله : « أو أمضي حقبا » فهو يكشف عن حرصه الشديد على تحقيق هذه الرغبة ، حتى أنه إذا لم يبلغها في المدى الذي قدّره ، فإنه لن يكُف عن السعي ، بل يظل هكذا طول حياته ، راصداً لهذه الغاية ساعياً إليها .. شأن من تتسلط عليه رغبة ، ويستولي عليه أمل ، فيعيش حياته كلّها ساعياً لهذه الرغبة ، جارياً وراء هذا الأمل ، إلى أن يتحقق أو يموت دونه .

والحُقَبُ : الازمان المتقطعة ، تجيء زمنا بعد زمن ، والحِقْبَة : القطعة من الزمن ، وجمعها القياسي : حِقَبٌ بالكَسر ، لا حُقَب بالضم.. ولكن النظم القرآني أصل يقاس عليه ، ولا يُقَاس هو على ما ضبط من مقاييس اللغة ..

وقوله تعالى :

« فلما بلغا مجمع بينهما نَسِيا حُوتَهُما فاتَّخذ سبيله في البحر سربا ». هذه حادثة وقعت في طريقهما إلى مجمع البحرين .. لقد بلغاه فعلا ولكنهما لم يكونا يَدْرِيَان أن هُنا هو مجمع البحرين ..

ويظهر أن موسى وفتاه لم يكونا قد سارا سيراً طويلاً ، حسبما كان ذلك في تقديرهما ، شأن من يطلب أمراً عظيماً ، ويسعى وراء أمل ضخم ، فيرصد له في كيانه عَزْماً وثيقاً ، ويُهَيِّيء نفسه — سَلَفاً — لملاقاة الشدائد والأهوال في سبيله.. فإذا عرض له المطلوب من قريب ، أو لاحت له بعض أماراته ، لم يلتفت إليه ، ولم يقع في ظنه أنه هو الذي يَجِدُّ في طلبه ، إنه في تقديره أبعد من هذا وإن الثمن المطلوب له لأغلى مما يبذل له ، ولهذا مرّ بالصخرة ، ولم يُعِرْها التفاتاً ، إذ ظن أنّ المدى أمامه أبعد وأبعد ..

وهنا يستكثر المفسرون من الأقوال في « الحوت » الذي كان معهما والذي نسيه فتاه عند مجمع البحرين حتى ليكاد يكون من عالم غير عالم السمك الذي تزخر به البحار .

والذي نؤثر أن نقول به ، هو أن هذا الحوت ليس الا سَمَكةً من أسماك البحر ، وحوتاً من حيتانه ، وأنهما قد اصطاداه ، أو صيد لهما ، وحملاه حيّاً معهما ، ليمكث أطْوَل مدة ، دون أن يتعفن ، حتى يُعِدَّاه طعاماً لهما عند الحاجة .. والحوت أكثر أنواع السّمك احتمالاً للحياة خارج الماء . ولعل هذا هو السر في اختيارهما لهذا النوع من السمك ، ليكون زاداً لهما يتزودان به في رحلتهما .

ولقد غفل الفتى عن أمر هذا الحوت ، فانسرب منه الى البحر .. إذ كانا يمشيان على الشاطىء ويتخذانه دليلاً لهما الى الصخرة التي عند مجمع البحرين .. فهما يسيران على شاطىء أحد البحرين الى أن يلتقي

بشاطىء البحر الآخر .. حيث يكون مجمعهما ، وحيث توجد الصخرة .

وربما كان الحوت ملفوفاً في قطعة من القماش ، أو في مجموعة من الحشائش ، فلما وضعا تلك اللفافة الى جانبهما ، وهما يأويان الى الصّخرة ، انسلّ الحوت من اللفافة ، ثم انسرب الى البحر دون أن يشعرا به .. ثم انهما لما أخذا حظّهما من الراحة ، ومَضَيا في مسيرتهما ، حَمَلَ الفتى اللفافة وهو يَظن انّ الحوت فيها ، فلمّا شعرا بالجوع ، وأرادا أن يهيئآ لهما طعاماً ، جاء الفتى الى اللفافة ، ليخرج منها الحوت ، فلم يجده ، فَذَكر أن المكان الذي تَركَ فيه الحُوت هو المكان الذي أويا فيه الى الصخرة ، وإذن فالحوت قد انسرب الى البحر في هذا المكان .

« فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غَدَاءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ، قال أرأيت اذ أوينَا الى الصخرة فإني نَسيت الحُوت وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً » .

أي فلما جاوزا مكانهما الذي كانا فيه عند مجمع البحرين ، وسارا حتى أجهدهما السير ، وهما يطلبان هذا المجمع ، قال موسى لفتاه : «آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً » أي تعباً شديداً، نحتاج معه الى شيء من الراحة ، وشيء من الطعام ، حتى نقويَ على مواصلة السير .. وقد أسرع الفتى ليعدُ الطعام ، ويهيء الحطب والنار ، ليشوي عليها الحوت الذي معهما .

وَبحَثَ الفتى عن الحوت فلم يجده .. وهنا تذكّر أنه نَسِيَ الحوت عندما أوَيَا الى الصخرة ، واستراحا قليلاً عندها .. فقال لموسى في أسف ، وعجب من أمره : « أرأيت اذ أوينا الى الصخرة ؟ فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن اذكره » وأحمله معي فيما أحمل من زَاد ومتاع .. ثم أنه لم يُمهل موسى ، وينتظر رأيه في هذا الأمر ، بل اندفع الى البحر ، ليصطاد شيئاً يجعلانه غذاء لهما .. « واتخذ سبيله في البحر عجباً » أي ان

الفتى قد اتجه الى البحر في قوة وعزم حتى يُكفّر عن فعلته تلك ، التي عدّها إهمالاً منه ولا يجبره إلا أن يسدّ هذا النقص ، ويأتي بحوت كهذا الحوت الذي ضاع او بشيء يغني غناءه ..

ولهذا كان منه هذا الأسلوب العجب في الاندفاع نحو البحر .

وقوله تعالى : « قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً » .

القصص : تتبع الأثر ..

وهنا يتذكر موسى أمارة من تلك الامارات التي يتعرف بها الى المكان الذي يلتقي عنده بالعبد الصالح .. فالعبد الصالح هناك عند صخرة عند ملتقى البحرين . ولكن عند ملتقى البحرين صخور لا حصر لها ، تمتد الى مسافات بعيدة قد تبلغ مسيرة أيام .. فأي الصخور هي ؟ إنها صخرة يفقد موسى عندها شيئاً من متاعه ، على غير قَصْد منه .. هكذا كانت الأمارة الدالة على التقائه بالعبد الصالح .. وقد تكون هذه الأمارة وحياً تلقاه من ربه ، أو رؤيا رآها في منامه ..

وأما وقد فقد الحوت عند تلك الصخرة التي أويا اليها .. فتلك إذن هي الصخرة المقصودة .. ولهذا ، لم يلتفت موسى الى فتاه ، ولا الى ما كان من نسيان الحوت ، بل اتجه الى المكان الذي عنده الصخرة ، قائلاً : «ذلك ما كُنّا نَبْغِ» أي ذلك هو المقصد الذي كنا نقصده، والموضع الذي نبحث عنه « فارْتَدّا على آثارهما قصصاً » أي فعادا الى الوراء ، يتبعان آثارهما التي تنتهي بهما الى حيث أويا الى الصخرة ، التي نسي الحوت عندها ..

ذلك — في تقديرنا — هو أقرب مفهوم الى تلك الآيات ، وما ضمت عليه من اسماء ومسميات .. اما ما ذهب اليه المفسرون من مقولات لا يحتملها النظم القرآني على أية صورة من صور الاحتمال ، فذلك ما رأينا

أن نصرف النظر عنه فهو أقرب الى الاساطير والخرافات منه الى أي شيء آخر .

ثم تمضي أحداث القصة بعد هذا ، فيقول الحق سبحانه :

الآيات (٦٥ ـ ٧٨)

« فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علماً (٦٥) قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما عُلمت رشداً (٦٦) قال انلك لن تستطيع معي صبراً (٦٧) وكيف تصبر على ما لم تحط به خُبراً (٦٨) قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك امراً (٦٩) قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً (٧٠) فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً (٧١) قال ألم أقل إنلك لن تستطيع معي صبراً (٧٢) قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا تُرهقني من أمري عسراً (٧٣) فانطلقا حتى إذا لقيا غُلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكيّةً بغير نفس لقد جئت شيئاً نُكْراً (٧٤) قال ألم أقل لك إنلك لن تستطيعَ مَعِيَ صَبراً (٧٥) قال إن سألتُكَ عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلَغْتَ من لَدُنّي عذراً (٧٦) فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبَوْا أن يُضَيّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ فأقامه قال لو شئت لاتخذتَ عليه أجراً (٧٧) قال هذا فراقُ بيني وبينلك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً (٧٨) » .

* * *

في هذه الآيات تبدأ أحداث هذا الحدث العظيم الذي كان موسى على موعد معه ، والذي من أجله قطع هذه الرحلة المثيرة ، واحتمل ما احتمل من جَهْدٍ وعناء .

وهنا يَلْتقي الرّجلان : موسى والعبد الصالح ، ويقول المفسرون ، والمحدّثون عن هذا العبد الصالح إنه « الخَضِر » [1] الذي يصفونه بصفات عجيبة ، هي من بعض واردات ما تشير اليه الآيات ، والتي يبدو فيها أستاذاً كبيراً يعلّم نبياً من أنبياء الله .

والقرآن الكريم ، لم يتحدّث عن هذا العبد الصالح أكثر من وصفه بأنه عبد من عباد الله ، آتاه رحمةً منه ، وعلمه من لدنْه علماً .. ولا شك أن هذا الوصف يضفي على صاحبه من الالطاف الربانية ما يرفع مقامه الى أعلى عليين ، حيث يشهد من عالم الغيب ما لم يظهر الله سبحانه عليه أحداً الا من ارتضى من عباده .. أما ما ذهب اليه أكثر المفسرين من مقولات في « الخضر » وفي أن يملأ هذه الدنيا حياة وأنه يطوف بآفاق الأرض ، ويرد السلام على كل من يسلم عليه ، وأنه يظهر لبعض الناس ويتحدث اليهم .. فذلك كلّه من وراء ما تحدث به آيات القرآن الكريم ، وإنما هي إضافات وذيول داعبت خيالَ القُصَّاص والإخْبَارِيين وادعياء التصوف ، وكان منطلقها ما لهذا العبد الصالح من علم آتاه الله إياه ، وان نبياً من أنبياء الله لم يصلح أن يكون تلميذاً له ، ولم يصبر على السير معه في هذا المستوى العالي أكثر من ثلاث خطوات [2] ..

إن هذا اللقاء الذي وقع بين موسى والعبد الصالح لم يدم طويلاً ولم

---

(١) الخضِر : بكسر الضاد .

(٢) اتخذ كثير من المتصوفة وأدعياء التصوف من الخضر – (بفتح الخاء وكسر الضاد) – ستاراً زائفاً يخرجون من ورائه على الناس بمدعيات وأكاذيب من الكرامات ، حيث يزعمون أنهم التقوا بالخضر وتحدثوا اليه ، وأخذوا من علمه ما أطلق أيديهم في هذا الوجود يفعلون فيه ما يشاءون ، فيطيرون في الهواء ، ويقطعون الآفاق البعيدة في لحظة عين .. وكل هذا لا أصل له ، وانما هو مما يفتّن به العوام وينخدعون له .

تجر فيه بينهما إلا أحداث ثلاثة ، اوقعت بينهما خلافاً حاداً ثم انتهت بفراق ..

ويبدأ اللقاء بين العبدين الصالحين ، بأن يعرض موسى على صاحبه أن يقبله تابعاً له ، يتعلم من علمه ، ويغترف من بحره .. وذلك في تواضع كريم وأدب نبوي عظيم .. فيقول :

« هل أتّبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً » .

وفي هذا العرض أمور :

١ ـ استئذان مصحوب برجاء من موسى ـ عليه السلام ـ ، وتلطف للدخول على إنسان ومشاركته أفكاره وآراءه والإفادة من علمه وذلك بما يقضي به الأدب الانساني فضْلاً عن الأدب النبوي .

٢ ـ أن يكون موسى تابعاً يقفو أثرَ متْبوعه ، ويَمشي في ظِلّه ، وهذا شأن الوارد على أهل الفضل والعلم ، يقفو أثرهم ، ويتبع خطوهم .

٣ ـ ان تكون غاية هذه الصحبة ، وتلك المبايعة ، تحصيل العلم والمعرفة ، فيفيد موسى علماً ، وينال العبد الصالح أجراً ..

٤ ـ هذا العلم المطلوب تعلمه ، هو مما يكْمُل به الإنسان ويرشد .. فهو علم يهْدي الى الحق ، والى الرشاد ، ويحمي من الضلال والفساد .

ويستمع العبد الصالح الى هذا العرض من موسى ، فيرَى أن العلم الذي عنده ، والذي يطلب موسى تناول شيء منه ، هو علم لا يستسيغه عقله ، ولا يقبله منطقه ، فيقول له في وداعة ولطف :

« إنك لن تستطيع معي صَبراً . وكيف تصبر على ما لم تحط به خُبْراً » ؟ .

أي إن العلم الذي معي،هو علم فوق إدراك العقول البشرية وتصوراتها؛ وإذن فلن يكون مبعثَ اطمئنان لك ، إذ يرفضه عقلك ، ويتأبّى عليه منطقك .. والعلم الذي يفيد صاحبه ، هو العلم الذي يحيط به عقله ، وتَتّسع له مداركه ، فينزل عنده منزل القبول والاطمئنان والانتفاع .. فإذا لم يكن كذلك أضرّ ولم ينفع ، وأثار في النفس قَلَقاً ، واضطراباً ، وعقد في سماء الفكر ، سُحباً من الشكوك والريب .

وإذ يتَلقّى موسى هذا الرّد من العبد الصالح ، يجد أن الفرصة تكاد تُفلت منه ، ويرى ان سعيه الذي سعاه قد جاء بغير طائل .. ولكنه لا بد أن يمضي في التجربة الى غايتها ، خاصة وقد أثار هـذا القول غريزة حب الاستطلاع عنده ، وأغراه بأن يخوض عباب هـذا البحر ، ولو خاطر بنفسه .. فقال في أدب نبوي رفيع :

« ستَجِدني إن شاء الله صابِراً ولاَ أعصي لك أمراً » .. هكذا ينبغي أن يكون أدب الطّلب والتحصيل ..

وازاء هذه الرغبة الملحّة من هذا التلميذ الحريص على طلب العلم والمعرفة ، يَرْضىَ الأستاذ أن يكشف لتلميذه عن بعض ما عنده ، ولكنه بعد أن يشترط لنفسه ، كما اشترط التلميذ من قبل لنفسه ، ان تكون صحبته غايةً لطلب العلم « على أن تعلمني مما علمت رشداً » . فيقول له العبد الصالح :

(فإن اتّبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحْدِثَ لَكَ مِنه ذِكراً) .. أي إن اتبعتني فَعَلَيك أن تَلْزم الصمت ، ولاَ تَنْطق بكلمة ، ولاَ تَنْبِس ببنت شَفَةٍ ، حتى أكون أنا الذي يدعوك الى الكلام فيما أريدك عليه ..

وهنا تبدأ الرحلة ، في رحاب هذا العلم الرباني ...

« فانطلقا .. حتّى إذا ركبا في السفينة خرَقها » ... وهكذا تبدأ الجولة الاولى بهذا الحدث ، الذي يَدُور له رأس موسى ، ويأخذ عليه العجب كل سلطان له على نفسه .. فيصرخ في وجه أستاذه قائلاً :

« أخرَقْتها لِتُغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمراً ! » فما هكذا يعمل العقلاء ، وما هكذا تجري أعمال أهل الصلاح والتقوى .. إنه عُدْوان صارخ على الأبرياء ، .. لا مبرر له ، ولا عذر لمرتكبه . وهل يجوز هذا العدوان الذي يقع على جماعة مسالمة لم تفعل شيئاً ، ولم تأت أمراً تعاقب عليه بخرق السفينة ؟ هل يجوز هذا في أية شريعة ، وفي أي عرف ؟ ثم ممن ؟ من رجل يأخذ مكان الأستاذية لنبيّ من أنبياء الله ؟ .

والأمر : المُنكر من الأمر ..

ويتلقّى العبد الصالح هذه الثورة المتوقعة من موسى ، في رفق ولطف ، لأنه يعلم هذا المدى البعيد بين الطّريق الذي يسير عليه ، والطريق الذي يسير عليه تلميذه ، فلا يزيد على أن يقول له :

« ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً » ؟ .

وهنا ينتبه موسى الى الشرط الذي كان اشترطه عليه صاحبه ، وصحبه هو عليه ... فيقول مُعْتَذراً في أدب كريم :

« لا تؤاخذني بِما نَسيت ولا تُرْهقني من أمري عسراً » .. أي هذه هفوة فتجاوز لي عنها .. وخذني برفق ، ولا تشتد عليّ ، وأنت تعلم من أول الأمر ثِقَل هذا الذي تُلقيه عليّ من علمك ...

« فانطلقا حتّى إذا لقيا غلاماً فقتله » .

وهذه فعلة أشد من سابقتها وقْعاً ، وأفدح خَطباً ، وأنْكَرُ نكراً .. إذ كانت الأولى في متاع من متاع الدنيا .. أما هذه ، فقد وقعت على نفس إنسانية بريئة براءة الطفولة .. لم تقترف إثماً ، ولم تأت منكراً .. ومن أجل

هذا يَنْسى موسى وجودَه كله ، ولاَ يذْكر الشرط الذي بينه وبين صاحبه ولا يلتفت الى زَلّته التي زلّها منذ قليل مع أستاذه ، واعتذاره له .. فيصرخ صرخة عالية مدويّةً :

« أقتلتَ نَفْساً زَكِيَّة بِغَيْرِ نفس ؟ لقد جئتَ شيئا نُكرا » .. هكذا يُلْقَى في وجه أستاذه بهذا الاتّهام الصريح .. « لقد جئت شيئا نكرا » . وكان في المرة الأولى قد لقيه بالاتّهام في مواربة وعلى استحياء : « لقد جئت شيئا إمرا » .. فالموقف هنا إزاء جريمة صارخة لا يمكن أن يقول م — حسب تقديره — عذر أبدا .. وإن كان يمكن أن يُقام لخرق السفينة — ولو على سبيل المِراء والجدل — عذر ..

وهنا ، يأخذ الأستاذ تلميذه بشيء من الشدة ، والتأنيب .. فيقول :

« ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا » ؟ ففي كلمة « لك » نخسة قويةٌ ، ويَدٌ تمتدّ إلى موسى من صاحبه فتعرك أذنه .

ولا يَجد موسى أمام هذا البُعد البعيد الذي بين مُنْطَلَقِه ومُنْطَلَق صاحبه ، إلا أن يَحسم الموقف ، ويَقطع الشّوط الذي إن طال بينهما إلى أبعد من هذا المدى ، لم تُحمد عاقبته ، وربما تصارعا ، وتقاتلا اذ لم يعد اللسان أداة قادرة على سد هذه الثغرات الهائلة بينهما .. فيقول موسى لصاحبه واضعاً حدّاً لهذا الصراع الذي يعتمل في داخله ، والذي يكاد يُدمّر وجوده الداخلي — يقول :

« إن سألتُكَ عن شيء بَعْدَها فلا تصاحبْني .. قد بلغتَ من لدني عذرا » .

لقد وجد موسى لصاحبه العُذر في ضيقه به، ولَوْمه له.. إنه قد صَحبه على شرط، وها هوذا يَخرق الشرط مرة، ومرة .. وهو بسَبيل أن يخرقه مرات إذا طال الطريق بهما .. ويَقْبَل العبد الصالح أن يواصل المسيرة مع

تلميذه ، وقد بَدَا له أنها لن تطول ، إذ سَرْعان ما يقع منه ما يُخرج موسى عن صمته ، وينقضُ الشرط الذي بينهما ..

« فانْطلقا .. حتىَّ إذا أتيَا أهْل قَرية استطعما أهْلها فأبَوْا أن يُضَيفُوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه .. » .

وهذا عَمَل لا يقبله عقل ، ولا يستسيغه منطق .. قرية ، ينزلان بها ويطلبان إلى أهلها أن يُنزلوهما فيها منزل الضّيفان ، فلايَجِدان منهم إلا الصدّ ، والدفع .. قرية ماتت فيها كل مشاعر الإنسانية ، وذهبت منها كل معاني المروءة .. ومع هذا يجدان فيها خَرِبَة ، لا يأوى إليها إلا الهوام فيَتَغْشيانها ، ليجدا فيها من السكن ما لم يجداه عند أهلها .. ثم يترَيان فيها جداراً « يريد أن ينقضّ » قد تصدع بنيانه ، وارتعشت أوصاله وكاد يهوى إلىَ الارض . . وهنا يدعو العبد الصالح عَزمَه وقوته ، فيقيم هذا الجدار المتداعي ، وإذا هو وقد دبّت الحياة في كيانه ، فثبتت قواعِدُه . واعتدل قوامه ..

ويَرى موسى هذا ، فيَعجب ويَدْهش ، ويَفيضُ به الكيل ، ثم لا يملك أن يحتفظ بما يزمجر في صدره من مشاعر الغيظ والألم .. فيقول لصاحبه :

« لَوْ شِئتَ لاتّخذت عليه أجرا » .

وفي هذه القولة لم يُلْقِ موسى بكل ما عنده .. ولكنه ، وقد عرف أن تلك هي الحاسمة القاطعة لما بينه وبين صاحبه ، وإنه ليعزّ عليه أن ينهي هذه الصُّحبة ، التي حرص عليها ، وتوقع العلم الكثير المفيد منها — يعز عليه أن يُنهيها على هذا الوجه ، ولم يحصّل علما ، ولم يُفد معرْفة ، وإنما كل محصوله منها هو تلك المتناقضات ، التي يقع كثير منها في كل لحظة من لحظات الحياة ، وفي كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية ، على مختلف مستوياتها .

– نقول ان موسى لم يُلْق بهذه القولة المستكينة الضارعة ، إلا ليجد لها عند صاحبه قبولا ، فلا يحتسبها عليه ، ولا يعدها مما ينقض الشرط الذي بينهما فيمضي به إلى غاية أخرى ، لعلها تكشف له عِلْماً ، أو تجيء إليه بجديد غير هذا الذي ما زال صاحبه يَطْلع به عليه .

ولكنّ العبد الصالح لا يَلتفت إلى المشاعر التي تلبّست بها هذه القوْلة ، بل يأخذها كما هي .. انها اعتراض ولا شك ، وإنها خروج على الشرط الذي اشترطه على صاحبه بقوله : « فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا » وهنا يسمعها موسى منه .. حُكما قاطعاً : « هذا فِراقُ بيني وبينك » !.

فقد بلغ الأمر بينهما غايته ، ولم يعد ثَـمَّةَ أمل في أن يلتقيا على طريق واحد ..

ولكن .. لم كان هذا العناء الذي عانَاه موسى ، حتى التقى بهذا الرَّجل الذي قيل له إنه سيَجد عنده من العلم ما لم يجده عند غيره ؟ فأين هو هذا العلم ؟ إن يكن ما حَصّله موسى من تلك التجربة ، هو هذا الذي وَقَع في نفسه من أحداثها – فما كان أغناه عن هذا العلم ، الذي بلبل خاطره ، وشَتّت مُجتمع رأيه ، وألقَى فيه ما ألقى من وساوس وظنون ؟

وانه ما يكاد موسى يستمع إلى شيء من هذه الخواطر ، التي تدور في نفسه ، حتى يطلع عليه صاحبه بقوله :

« سَأُنَبِّئك بتأويل مَا لم تَسْتطع عليهِ صبرا » .

أهكذا الأمر إذن ؟

أهناك نبأ وراء هذه الأحداث ، غير ما يحدِّث به ظاهرُها ؟ ومَاذا عسى أن يكون هذا النبأ ؟

وانه لنَبَأٌ عظيم . سَنَرى فيما ينكشف منه ، علاجاً لقضية من أعقد

القضايا التي واجهها العقل الإنساني ، وهي مشكلة « القضاء والقدر » .. التي نرجو أن نعرض لها ــ ان شاء الله ــ بعد أن نرى تأويل العبد الصالح لموسى « ما لم يَستطعْ عليه صبرا » .

المعلم والتلميذ :

يقول الله تعالى على لسان العبد الصالح ، وهو يكشف لموسى ما كان غائباً عنه ، من عواقب الأحداث التي أنكرها موسى على العبد الصالح :

« أما السفينة فكانت لِمساكين يَعْملون في البحر ، فأردتُ أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا (٧٩) وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فَخَشِينا أن يرهقهما طُغْيَانا وكفرا (٨٠) فأرَدْنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما (٨١) وأما الجِدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً فاراد ربُّك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ومَا فعلته عن امري ذلك تأويل ما لم تَسْطع عليه صبرا » (٨٢) .

* * *

كان لا بد للمعلّم أن يكشف لتلميذه عن خفايا هذه التجربة المثيرة التي أراه منها ظاهراً لا يستقيم على أي منطق ، ولا يتفق مع فَهْم أي عاقل ، ولا يلتقي مع تقدير أي إنسان سَليم الادراك .. إنها أمور تَدور لها الرؤوس ، وتضطرب معها العقول .. وإن موسى لَفِي حَيْرة بالغة من أمر صاحبه هذا ، الذي جاءه ليطلب العلم عنده ، بتوجيه من ربّه .. وحياً ، أو إلهاما .

وقد فَعل المُعلّم ما تَقضي به الحكمة ، ويَعتدل به ميزان التربية السليمة ــ فلم يَدَع تلميذَه نَهَباً للوساوس والشكوك ، بل إنه ما كاد يُؤذِنُه بالفراق ، وبإنهاء هذه التجربة التي أدخله فيها ، حتى أخذ يشرح له حقيقة الموقف ، ويكشف له عن الوجه الخفيّ من كلّ حدث من تلك

الأحداث الثلاثة .. فكانت قولته له: « هذا فراق بيني وبينك » مشفوعةً بقوله : « سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » .

وتلك هي التربية الحكيمة التي يُوضَع فيها التلميذ في امتحان يعطيه كلَّ جهده ، ويَبْذُل له كل طاقته ، ثم يَرى بعدَ هذا كلِّه أنه لم يَحْصُل على غير البلبلة والاضطراب .. وهنا تتهيأ النفس ، وتتفتح المشاعر ، وتستيقظ المدركات لِتَلَقِّي بكل ما يذهب بما تعانيه من حيرة ، وما تعالجه من شرود فَتُمسك بكلِّ خيط من خيُوط المعرفة يقودها إلى شاطىء الأمن والسكينة .

وهنا في هذه الآيات ، تأويل كلِّ حَدَث من تلك الأحداث التي انقلبت فيها الحقائق رأساً على عقب في تصوّر موسى ، وفي حِسَابه وتقديره لها .

وفي كلمة « تأويل » إشارة إلى أن هذه الأحداث — كما بَدَت في ظاهرها — لا تَعْدو أن تكون أشبه بالاحلام ، التي لها مفهوم يُغاير منطوقها في صورته وأن هذا المفهوم لا يَعْلمه الاَّ الله والراسخون في العلم ، وذلك كتأويل « يوسف » لرؤيا الملك ، التي عَجَزَ العلماء عن تأويلها ، وقالوا : « أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » .. (٤٤ : يوسف).

فالأحداث التي أجراها العبد الصالح بين يدي موسى أشبه بهذه الرُّؤَى وان كانت أبعد منها في المفارقة ، بين منطوقها ومفهومها .

وتأويل الحدث الأول ، هو كما يقول العبد الصالح :

« أما السفينة فَكَانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبَها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » .

هكذا الأمر إذن ؟

إنه كما يَبدو الآن عمل من أعمال البِرّ والرَّحمة لأصحاب السفينة ..

وقد كان يُرَى من قبلُ عدواناً عليهم ، وظلماً صارخاً لهم ...

انَّ هذا الخَرْق الذي أحدثه العبد الصالح في السفينة ، قد جعلها سفينة معطوبة ، مَعِيبة ، لا تصلح للغرض الذي من أجله كان الملك يستولي على السفن وينتزعها من يد أصحابها ، قَهْراً وقسرا .. وبهذا تَخَطّت عينُ الملك هــذه السفينة ، حين رآها على تلك الحال ، وبهذا أيضاً سلمت السفينة من هذا العُدوان ، وبَقيت في أيدي أصحابها المساكين ، الذين يعملون عليها ويُرزقون منها .

أمّا هذا العَطَب الذي لَحِق بالسفينة — أيّاً كان — فإنه مُمْكن إصلاحه .. وذلك — على ما به — هو خير من ذهاب السفينة كلها .. إنه خير على أي حال .

— وفي قوله : « وكان وراءهم ملك » لا تعني كلمة « وراءهم » أن الملك نَفْسه كان على أثرهم ، وإنما تعني أن سلطان المَلِك قائمٌ عليهم ، كما في قوله تعالى : « من ورائه جهنم » (١٦ : ابراهيم) أي انها مسلطة على هذا الظالم محيطة به لا يفلت منها ..

هذه واحدة .

وقد تلقاها موسى بأذُنٍ صاغية وَاعية ، وقَلبٌ مُتَفَتح .. فأشْرَق وجهه ، ولَمَعتَ عَيناْه . ببَريق السّكينة والرضا .. ثم ها هو ذا يُصْبح كلُّه كياناً مستمعاً لما يقول صاحبه ، في أمر هذا الغلام الذي سَفَك دَمه ، من غير ذنب ظاهر .

ويجيئه الجواب في غير مَهَلٍ :

« وأما الغُلام فكان أبواه مؤمنَين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا » .
« فأردنا أن يُبدلهما ربُّهما خيراً منه زكاة وأقربَ رُحما » .

ويقع في نفس موسى شيء من هذا التأويل .

إنه تأويل مُستند إلى احتمالاتِ المستقبل ، وقائم على توقعات يمكن أن تقع أو لا تقع .. وكيف لِموسى أن يَتَحقق من إرهاقِ هذا الغلام لوالديه — بعد أن يَكْبر — بما يكون منه من طغيان وفجور ، وإفساد في الأرض ، وكفر بالله ؟ وكيف يحكم على هذا الغلام البريء بما سيكون منه بعد سنين ؟ إن ذلك مجرد فَرْض يُفْتَرض . ! !

وأكثر من هذا ، فإن كلمة « فخَشِينا » تُشعر بأن الْعبدَ الصَّالحَ نَفْسه لا يَرى الأمر أكثرَ من مجرد احتمال غير متيقن .. إنه مجرد خشية .. والخشية قد تقع وقد لا تقع .

ولكن يقوم بين يَدَي موسى شاهد يَدْفع هذه الوساوس، ويذهب بتلك الشكوك .

فأولاً : لقد رأى السّفينةَ التي أعطبها صَاحِبَه من قبل ، قد سلمت من يد الملك ، على حين أخذ كل السفن التي كانت صالحة للعمل ، مثلها ، قبل أن يصيبها العطب .

فهو إذ يجيء إلى أمر الغلام وما يُقال فيه ، إنما يجيء إليه ومعه هذا الشّعور الذي ملأ قلبه طمأنينة وتسليماً لصاحبه ، الذي يَرَى ما لا يراه .

وثانياً : كان موسى يَعْلَم مقدّماً أنّه بين يَدَي عبد من عباد الله الصالحين قد آتاه الله من العلم ما استحق به أن يكون أستاذاً لنبيٍّ من أنبياء الله ... اصطفاه الله لرسالته ، وكلمه تكليماً مباشراً ، بلا واسطة .. وإن من كان هذا شأنه ، لا يتهم في أخباره ، وأفعاله ، وان احتاج المرء إلى تأويلها ، وتوضيحها حتى يطمئن قلبه ، وتسكن وساوسه .

وثالثاً : يعرف موسى عن يقين أن وراء تحركات الأحداث قوةً قادرة قاهرة هي التي تَضْبط حركاتها ، وتَجرْي بها إلى قَدَر معلوم ، سواء أكان ذلك مما يتفق مع تقدير الناس لمجريات أمورهم ، ومنطلقات سَعيهم ،

أو لا يتفق، وعلى هذا فإنه ليس بالبعيد المستغرب ـ عند موسى ـ أن يكون هذا الذي كرهه من صاحبه وعده شرا ، هو أمر محبوب في عاقبته ، خير في مآله الذي يؤول إليه .

ـ فإذا كان قد وقع في نفس موسى شيء من هذا التأويل لمقتل الغلام ، فإن في نفس موسى أيضاً كثيراً من قوى الايمان التي تدفع هذه الشكوك التي ساورته ..

وأما قول صاحبه : « فَخَشِينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا » .. فإنه محمول على أمرين :

أولهما : أن هذا الغلام الذي هو شرٌ كله ، وبلاء على الإنسانية ، بما يحمل في كيانه من طغيان ، وفساد ، وكفر ـ هذا الغلام ـ وذلك شأنه إن تأذّى به المجتمع الذي يعيش فيه ، فإن ما ينضح منه من الاذى النفسي على أبويه المؤمنين ، هو أضعاف مضاعفة لما يجده غيرهما من شروره وآثامه إذ كان هو غرسهما الذي غرساه ، وكان الشر الواقع على المجتمع منه ، هما ـ لسبب أو لآخر ـ شركاء فيه ..

فالخشية التي يصورها العبد الصالح هنا ، هي خشيته على هذين الأبوين الصالحين المؤمنين ، وما يدخل على قلبيهما من حسرة وكمد على مصابهما في ابنهما هذا ، ثم في مصاب الناس به .. وإذا كان ذلك لم يقع بعد ، فهو مما يُخْشَى أن يقع لو ترك الغلام يأخذ مسيرته في الحياة .. والخشية لا تكون إلا مما لم يقع ، لا مما وقع .. وإن الطبيب الذي يرى عضواً فاسداً في جسد إنسان فيعمل على بتره لحماية بقية أعضاء الجسد منه ليفعل هذا الفعل من علمٍ لا يعلمه غيره من الناس الذين لا يعلمون ما يعلم .

وثانيهما : ان هذا الغلام ، هو بلاء على نفسه ، وأنه نبتة سوء ، لو تركت حتى تبلغ مداها ، لأوردت صاحبها موارد الهالكين .. فكان موته

في هذه المرحلة من عمره رحمة به ، إذ عاجله الموت قبل أن يبلغ مبلغ التكليف وقبل أن يأتي ما كان يمكن أن يأتي به من آثام .. فالخشية هنا ، خشية منه كما أنها خشية عليه .. يقول الرسول الكريم – صلوات الله وسلامه عليه – فيما رواه البخاري ومسلم : « إن الغلام الذي قتله الخضِر طُبعَ كافرا ، ولو عاش لأرهق أبويه طُغياناً وكفرا »[1] .

أما عزاء هذين الأبوين الصالحين المؤمنين عن فَقْدِ هذا الغلام ، فهو ما كشف عنه العبد الصالح في قوله :

« فأردْنا أن يُبدلهما ربهما خيْراً منه زكاة وأقرب رُحْما » .

والزكاة : الطهر ، والنقاء والصلاح والتقوى ..

والرُّحم : الرَّحْمة التي تكون بين المتراحمين ، من أبناء وآباء وإخوة وأصدقاء ..

فهذا الولد الذي سَيُرزَقُه هذان الأبوان خلَفاً لابنهما القتيل ، سيكون لهما فيه قُرَّةَ عين ، وأُنسَ نفس ، ومَسَرَّةَ قلب ... مما يريَان فيه من صلاح وتقوى ، وما يجدان منه من برٍّ بهما ، وإحسان إليهما ..

ثم إن بين يدي موسى – مع هذا كله – مثَلاً ماثلاً له ، فيما كان بين نوح وابنه .. فقد جعَلَه الله سبحانه وتعالى في المغرقين ، ولم يُقَدَّرْ له أن يكون في الناجين المؤمنين .. لقد أغرقه الله أمام عيني أبيه .. وكان العزاء الذي عزّى الله سبحانه وتعالى به نوحا ، قوله سبحانه له : « يا نوح .. إنه ليْسَ من أهلك .. إنه عمل غير صالح فلا تسأل ما ليس لك به علم ، إني أعظك ان تكون من الجاهلين » (٤٦ : هود) .

فماذا يبدو من فرق بين هذا الغلام الذي قتله العبد الصالح ، وبين ابن

---

(١) الخضر : بفتح الخاء وكسر الضاد ..

نوح الذي أغرقه الله ؟ .. إنه القَدَر الذي أجْرى حكمَه على هذين الابنين ، ولم ينكشف أمر القَدَر لنوح إلا بعد أن أنبأه الله في قوله تعالى « إنه لَيْسَ من أهلك إنه عَمَلٌ غير صالح » . تماماً كما لم ينكشف أمر القَدَر لموسى إلاّ بعد أن أنبأه العبدُ الصالح بقوله : « وامّا الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طُغياناً وكفرا ». « فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرَب رُحما » .. والله سبحانه وتعالى يقول : « وعَسَى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئــاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون »[1] .

بقيت مسألة الجدار .

ويَبْدو وجهُ اللقاء بين ظاهرها ، وباطنها بَعيداً ، أبْعَدَ من الحَدَثين السابقين ..

ذلك أنه إذ أمكن أن يُلتَمس لأمرِ السفينة وجهٌ يُحْمل عليه ما أحدث العبد الصالح فيها من خَرق ، وإذ أمكن أن يقال في قتل الغلام قول — فإنه لا يمكن أن يُلتمس لأمر هذا الجدار وجه ، ولا أن يُقال فيه قول — إذا أُخذت الأمور بظاهرها — إلا ان يكون ذلك على سبيل المغالطة والسفسطة .

فإذا قيل إن خرق السفينة كان لشيء من المُعابثة أو اللّهو ، أو الامتحان صَبْر أصحابها ، واستخراج ما عندهم من حكمةٍ وعقل ، في مواجهة هذا التصرف الشاذ .. وإذ قيل إن قتل الغلام كان عن خَطأ غير مَقْصود ، أو كان عن فِراسة تَفرسها فيه العبد الصالح ، فرأى فيه — وهو غلام — الرجل الذي سيكونه حين يبلغ مبلغ الرجال ، ويملأ الدنيا بَغياً وعُدواناً ومحادّة لله ، وكُفراً به .. فأخذَه بجزاء الذين يحاربون الله ، ويَسْعون في الأرض فساداً ..

— نقول إذا أمكن أن يقال هذا وذَاك ، أو غير هذا أو ذاك ، في

---

(١) البقرة : ٢١٦ .

خرق السفينة ، وفي قتل الغلام ، فأي قَول يمكن أن يقال في شأن هذا الجدار المُتداعي ، الذي يَنْقُضُه العبد الصالح ثم يُعيد بناءه ؟ وهو جِدَار في قرية لم يَلْق هو وصاحبه منها إلا الضَّنّ بأقل الخير من يد أهلها ! !

إن الذي كان من الممكن أن يكون من العبد الصالح إزاء أي شيء يراه فاسداً في أهل هذه القرية ، التي استطعما أهلها فأبوا أن يُضيفوهما — هو ان يَدَع هذا الفساد على حاله، يَعيش في أهل هذه القرية الظالمة، أو يغريه بهم ، ويهيجه عليهم ، فيكون العقاب الذي يؤخذون به مُسلَّطاً عليهم من قريتهم فإذا جَاوَز الأمر هذا ، وأخذ العبد الصالح أهل القرية بالصَّفْح والمغفرة ، ثم جَاوَز هذا أيضاً إلى أن يَدْفَع شرّاً يأتيهم من قبل هذا الجدار المتداعي فليكن ذلك بهدمه ، حتى لا يسقط على من يجلس اليه ، أو يمر به . أما أن ينقضّ هذا الجدارَ ، ثم يُقيمَه .. فَذَلك ما لا يَحْتمله أي واردٍ من واردات الظن أو الوهم ، خاصة ، وانّ الفَعْلَتين السَّابقتين كانتا من العبد الصالح ، قد وقعتا — فيما يبدو — عدوانا منه بغير حق، وإساءة إلى من لم يقع منه سوء .. وكان الظن بالفَعْلة التي تأتي بعدهما أن تجري في هذا الاتجاه ، وأن يُرْمى أهل القرية بصواعق مهلكة أو يُتْركوا وما هم فيه .. أما أن تقابل إساءتهم بهذا الإحسان ، فذلك تيار مُضاد للتيار الذي كانت تجري فيه سفينة موسى وصاحبه ومن شأن هذا ان يحدث دوامة تضطرب فيها السفينة اضطراباً مجنونا ، ثم لا تلبث أن تهوى إلى القاع .

ولا يترك العبد الصالح لتلميذه ، فُسْحة من الوقت ، يَسير فيها تفكيره في هذه المدارات التي تزمجر فيها الأعاصير ، والزوابع ، بل إنه سَرْعان ما يكشف له وجه الحقيقة سافراً ، وإذا موسى يجد هذه الكلمات تنفذ إلى أعماقه فتنزل على قلبه برداً وسلاماً ، وتَدْفع سفينته في ريح رُخاء إلى شاطىء الطمأنينة والسلامة .

«وأما الجِدَارُ . فكان لِغلامين يَتيمَيْنِ في الْمَدِينة . وكان تحته

كنزٌ لهما ... وكان أبوهما صالحاً فأراد ربّك أنْ يبلغَا أشُدّهُما ويستخرجا كنزهما .. » .

وماذا يقول موسى بعد هذا القول ؟

إن يكن ثَمّةَ قول يُقال .. فهو تلك الخاطرة التي تَخْطِر له ، وهو يصل مجرى الأحداث بعضها ببعض ، فيقول فيما بينه وبين نفسه : إذا كان صَلاح الأب قد امتدّ الى ولديه ، فنفعهما وحفظ لهما كنزهما الذي تركه لهما من بعده فكيف لا ينفع إيمان الأبوَيْن وصلاحهما ، هذا الغلام الذي قُتل ؟ وكيف لا ينفع صلاح الأبوين في استنقاذ ولدٍ واحد ، على حين ينفع صلاح أبٍ وحدَه في استنقاذ ولدين ؟

وما يكاد موسى يلتفت الى هذا ، والى غير هذا مما ساوره من خطرات حتى يلقاه أستاذ بقوله :

« رحمةً من ربك » .

إنها رحمة الله ، يُنزلها حيث يشاء ، ويَخْتَصّ بها من يشاء .. حسب ما تقضي به حكمته ، ويحكم به علمه في خلقه .. كما يقول سبحانه : «نُصيبُ برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين » (٥٦ : يوسف) وكما يقول جل وعلا: « والله يختص برحمته من يشاء .. والله ذو الفضل العظيم » (١٠٥ : البقرة) .

والأمر كلّه في حقيقته ، قائم على الرحمة .

فَخرْق السفينة ، كما — آل اليه الأمر — رحمة بأصحابها ..

وقتل الغلام ، كان — كما آل اليه — رحمة به ، وبأبويه ، ورحمة بالناس ..

وإقامة الجدار ، كان — كما آل اليه أمره — رحمة بالغلامين اليتيمين .

إن أمر الله ، وقضاءه في خَلْقه .. حيث كان ، وعلى أية صورة وقع ، هو رحمة .. من رب رحيم . وهذا ما يشير اليه قوله سبحانه : « ورحمتي وسعت كل شيء » (١٥٦ : الاعراف) .

ورحمة الله إنما تجري بأسباب ، وتنزل حيث تَنزل بقوىً مسخرة ، تدفع بها الى المواطن المسوقة اليها ، بقَدَرٍ مقدور ، وتقرير معلوم .

وهذا حكم يقرره الأستاذ لتلميذه ، فيرى من هذا الحكم أن استاذه ليس إلا سَحَابةً تحمل غَيْثاً ، تَدْفع بها قُدرةُ الله ، الى حيث يُراد لها أن تنزل فيقول له :

« وما فَعَلْته عن أمري ... » .

إنه لا أمرَ له مع أمر الله .. وما هو إلاّ رسولٌ يفعل ما أمر الله به ، فيمن أرسله اليه .. شأنه في هذا شأن تلميذه « موسى » الذي أُمِرَ بأن يبلغ رسالة ربه الى من أرسله الله اليهم من عباده .

وهنا يُصافح الأستاذ تلميذَه ، مودّعاً .. بقوله :

« ذلك تأويل ما لم تَسْطِعْ عليه صبراً » .

ويفترق الصاحبان — ويأخذ كل منهما طريقه في الحياة ، على ما كانا يعهدان من قبل ..

أما العبدُ الصالح .. فطريقه قائم على مستوى القَدَر ، المختفي وراء سُتُرِ الغيب ، المحجّب بنور الله ، لا يراه أحد إلا بنور من هذا النور .. « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » (٤٠ : النور) .

وأما موسى .. فيأخذ طريقَه القائمَ على مستوى الحياة ، وما ينكشف له منها ، حَسْب تقديره ، وتفكيره ، كإنسان ذي بصيرة مشرقة — إن انكشف له شيء لم ينكشف لغيره ، فقد غابت عنه أشياء ، وأشياء ! ! .

وهنا إشارة لا بد منها ، الى هذا الاختلاف الذي جاء عليه النظم في قول العبد الصالح لموسى ، حين وصل الأمر بينهما مداه ، فقال له : «سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً» ثم في قوله له ، بعد أن أنباه بما لم يستطع عليه صبراً ، إذ قال : « ذلك تأويل ما لم تَسْطِعْ عليه صبراً » .

فهتاك قولتان تبدوان وكأنهما على سواء : « تستطع » و « تسطع » وهما يبدوان كذلك في غير القرآن الكريم .. ولكنهما في كلام الله ليستا على سواء في الميزان ، الذي جاء عليه النظم القرآني ، وإعجازه القاهر المتحدي .

فكلمة « تستطع » فيها شِدة ، وقَسوة ، ومصارحة مكشوفة ، بالعجز عن الاستطاعة .. وقد قالها العبد الصالح هكذا صريحة مكشوفة في أول لقاء بينه وبين موسى ، ليقطع بها الرحلة مع تلميذه ، وليريه أن الطريق شاق ، والمسالك متعبة ، وأنها فوق ان تحتمل ، وذلك في قوله له : « إنك لن تستطيع معي صبراً » .

ولكن حين جلس العبد الصالح مع تلميذه مجلس المعلّم ، الذي يكشف لتلميذه معالم الطريق المظلم أو المشرق ، الذي كان يطوف به فيه — جاءه بهذه الكلمة « تسطع » وقد اقتطع منها هذا المقطع الحاد ، فاذا هي كلمة وديعة رقيقة فيها هروب من المواجهة الصريحة المتحدية ، وعليها مسحة من الحياء والخفر .. وشتان في نطق اللسان بكلمة « تستطع » ثم بكلمة « تسطع » فالأولى يعاني منها اللسان ثقلاً ومشقة والأخرى لا ثقل فيها ولا مشقة في نطقها .

* * *

ولقد انتهت الرحلة ، والتقط موسى أنفاسه اللاهثة بعد أن عرف تأويل الأحداث ، فأخذت الكلمات وضعها الطبيعي الذي يتناسب وتلك الحال التي يظللها الاسترواح والهدوء .

ومما ينبغي الالتفات إليه أيضاً ، هذا الاختلاف في موقف العبد الصالح من الأحداث الثلاثة ، ومكانه منها ، ودوره فيها ..

فهو في حدث السفينة يقول : « أردْتُ أن أعيبها » مُضيفاً الفعل اليه وَجَعْلَه عن إرادةٍ منه وحدَه .

وفي قتل الغلام ، يقول : « فخشينا أن يُرهقهما طُغْياناً وكُفراً . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً » .. مضيفاً الفعل هنا الى ضمير المتكلمين « فخشينا » .. « فأردنا » .

أما في إقامة الجدار ، فيقول : « فأراد ربُّك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك » مضيفاً الفعل الى الله وحده .

ولا شك أن وراء هذا الاختلاف في الموقف الذي يأخذه العبد الصالح من هذه القضايا ، والدّور الذي يبدو فيه على مسرح أحداثها — لا شك أن وراء هذا الاختلاف أسراراً لطيفة ، إذا كشف الحجاب عن بعضها ، أشرقت منه وجوه مضيئة من الإعجاز المبين ، لآيات الله وكلماته .

فمن تلك الأسرار ، لهذا الاختلاف في موقف العبد الصالح من هذه الأحداث ، أنه في حادث السفينة — والله أعلم — نَسَب الفعل اليه بقوله : « أردت أن أعيبها » وذلك لأن أثر الحَدَث جاء في أعقاب الفعل مباشرة ، بحيث لم يكن هناك وقتٌ بين خَرْقِ السفينة ، وصَرْف نَظَر المَلك وأعوانه ، عنها للعيب الذي كان فيها . ولو كان هناك وقت بين خرق السفينة ، وبين مرور الملك أو أعوانه بها ، بحيث يسمح لأصحابها بإصلاح ما أفسد العبدُ الصالح منها ، لَمَا سَلِمت من أخذها من أيدي أصحابها .. ولما كان للخرق الذي أحدثه فيها حكمة .. وذلك أمر إن لم يلحظه موسى في حينه ، ولم يُدْرِك السر الذي من أجله سَلِمت السفينة المعطوبة لأصحابها — فإنه قد وقع منه موقع اليقين حين كشف له صاحبه عنه ، وأراه أن هذا

العيب هو الذي فوّت على الملك فرصة الاستيلاء عليها ..

فهذا ، الفعل من العبد الصالح ، هو مما يجري مجرى العادة في أفعال الناس على مستوى الظاهر .. ولو أمكنت الفرصة أصحاب السفينة أن يحدثوا فيها ما أحدث العبد الصالح من خرق لفعلوا ، ولكنّ وسائلهم الى هذا كانت محدودة والأمر كان أسرع من أن ينتظر تلك الوسائل المحدودة القاصرة .. إذ كان الملك أو أعوانه في الطريق اليهم ، وربما جاءتهم الأنباء بهذا ، ولكن ما الحيلة ؟ إنهم لم يفكروا قط في أن يفعلوا بالسفينة ما فعل العبد الصالح ، لأنها كانت قطعة من حياتهم ، ولم يخطر ببالهم يَوْماً أن يفسدوها أو يغرقوها بأيديهم ، وإنــه لأهون عليهم أن يأخــذها المــلك من أن يَقْضُوا هم عليها بأيديهم ... فلمّا أن فعــل العبــد الصالح ما فعــل لم ينكر عليه أصحاب السفينة فَعْلته ، وإلا لأمسكوا به وبصاحبه ولكنهم – وقد رأوا في هذا الفعل الحكيم الحاسم ما يُحقق إرادة كانت تُراودهم ولا يجدون سبيلاً لتحقيقها – أمسكوا عن أن يقولوا شيئاً ، أو يحدثوا أية حركة تنبيء عن أن أمراً قد حدث ، حتى لا يفتضح هذا الفعل ، الذي ربما عَدّوا صاحبَه الذي فعلهُ ، واحداً من جماعةِ حركة مضادة للملك ، قائمة في وجه هذا الفعل الظالم الذي يجريه على أصحاب السفن ..

إذن .. فالأمر هنا لا يخرج عن أن يكون إرادة بَشرية ، إزاء أمر عارض يمكن أن يأخذه الإنسان بتقديره ويُجريه بإرادته .. وحُقّ للعبد الصالح أن يقول : « فأردت » ناسباً الفعل الى إرادته .

أما في قتل الغلام ، فإن الأمر مختلف ، حيث كانت المسافة بعيدة بين دواعِي قَتْله عند العبد الصالح ، وبَين ظاهر الحال من أمر هذا الغلام . كما أن الحكمة التي سيكشف عنها العبد الصالح لموسى من قتل هذا الغلام ؛ معلّق تحقيقها بمستقبل بعيد يستغرق من الزمن مدة انتقال الغلام الى الصّبا

ثم بلوغه مبلغ الرجال ، حيث يبدو فساده ، وينكشف معدنه ..

وهذا كله من شأنه أن يُوقع في نفس موسى كثيراً من الشكوك والريب حول تقبّل هذا التعليل الذي تعلل به صاحبه لقتل الغلام ..

ولهذا جاء اليه صاحبه مِن عَلٍ ، فتحدّث اليه بلسان الذي يعرض نفسه في مستوى غَيْرِ المستوى الذي كان يخاطبه فيه ، بعد خرق السفينة ..

إنه هنا يملك من العِلْم ما ينبغي أن يَذْكُرَه موسى إن كان قد نسيه حين جاء يطلب التعلم من علمه .. الذي علمه الله ، ولهذا قال له بضمير المتكلم المُعظم نفسه : « فَخَشينا » ولم يقل « فَخشيت » ثم قال : « فأردنا » ولم يقل « فأردت » إنه هنا — وان كان عبداً من عبيد الله — إنما يحدث بنعمة الله تعالى عليه ، وبما آتاه من رحمته ، وما علمه من لدنه من علم ، وأنه يستند الى قوى خفية ، ينطق عنها ، ويحدّث بجلالها وعظمتها ..

وأمّا الجدار ، فقد رأى العبد الصالح أن يعود بالحديث عنه الى مكانه الطبيعي من قدرة الله ، وأنه لا إرادة له مع إرادة الله ، وأن حديثه عن نفسه بضمير المتكلم المعظّم لذاته ، لم يكن الا من قبيل التحدّث بنعمة الله عليه .. ولهذا قال لصاحبه .. « فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما » .. فنسب الامر كله الى الله سبحانه ، وأضافه الى إرادته جل شأنه » ثم أعقب هذا بقوله : « رحمةً من ربك . وما فعلته عن أمري » وبهذا ينسحب هذا المعنى على الحدثين السابقين . وأنهما رحمة من رحمة الله . وليس للعبد الصالح إلا تنفيذ ما قضى الله تعالى به . إنّ في هذا التنقل من إرادته الى ارادة الله تعالى إشارة الى ان مَرَدّ الأمور كلّها الى الله سبحانه . وأنه وإن كان للعبد إرادة فهي داخلة في إرادة الله جارية على ما تقضي به ، كما انه لا يُنكر أن يكون للعبد إرادة وإن كان إرادة الله تعالى قائمة على كل إرادة .

هذا وجه من وجوه النظر في هذا الاختلاف الذي جاء عليه النظم القرآني لحديث العبد الصالح عن نفسه ..

ووجه آخر .. وهو وجه يمكن أن يُرى فيه أن العبد الصالح قد أضاف الفعلين الاولين – خرق السفينة وقتل الغلام – الى نفسه ، لما يبدو في ظاهرهما من ظلم وعدوان ، على حين أضاف إقامة الجدار الى الله سبحانه وتعالى ، إذ كان – كما يبدو – عملاً من أعمال الخير والإحسان .

ووجه ثالث ..

وهو أن الأحداث الثلاثة ، في مجموعها ، تصور مشيئة الله سبحانه وتعالى ومشيئة الإنسان ..

ففي خرق السفينة .. إرادة مطلقة للإنسان ، ومشيئةٌ خالصة له ، يتصرف بها كيف يشاء .. هكذا : « فأردت أن أعيبها » .

وفي قتل الغلام ، تبدو مشيئة الإنسان مُختلطة مع مشيئة الله ، داخلة فيها .. هكذا : « فخشينا » .. « فأردنا » .. فهذا الضمير يشير الى أن العبدَ الصالح ليس وحده هنا ، وإنما هو مع مشيئةُ مشيءٍ ، وإرادة مُريد ، هو الله رب العالمين : « وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله » (الإنسان : ٣٠) .

وفي إقامة الجدار .. يتجرد العبد الصالح من كلّ مشيئة وإرادة .. إنه هنا ليس أكثر من أداة منفذة لمشيئة الله ، عاملة بإرادته ، حيث تنتهي الأمور كلها الى مشيئة الله وإرادته .

وهكذا الإنسان ، في هذه الحياة ، وفي كلّ ما يأخذ أو يدع من أمورها إنه يَمُر في ثلاث مراحل ، مع كل أمر يعالجه ..

المرحلة الاولى .. يبدأ فيها العمل ، وكأنه مُطلق من كل قيد يتسلط على إرادته ..

والمرحلة الثانية .. يُعالج فيها العمَل ، وهو مُصطحب هذا الإحساس بالحُرية الكاملة في أخذ الاتجاه الذي يتجهه .. ولكنه يجد أثناء العمل ما قَد

يَعترض طريقه ، فَيَعثر ، أو ينحرف ، أو يأخذ طريقاً غير هذا الطريق الذي بَدأ منه ..

وهنا يرى ما يُصادم إرادته ، ويُغيّر من وجهة سفينته ..

والمرحلة الثالثة .. يأخذ فيها العمل صورته النهائية ، ويصبح أمراً واقعاً ، مؤثراً في حياة صاحبه بما يسر أو يسوء ، وبما يحمد أو يكره ..

وهذه المرحلة الاخيرة التي ينتهي عندها العمل ، هي الإرادة العليا ، وهي القَدَر المَقْدور ، الذي لا بُدّ أن يصير اليه الأمر .. سواء أكان ما وقع قد جاء على وفق إرادة الإنسان أو جاء على خلافها .

تلك هي بعض الأسرار التي لاحت لنا من خلال نظرنا الكليل .. وهناك أسرار لا تحصى ، يراها ذوو الأبصار التي اكتحلت بنور الحق ، فترى ما لا تراه العيون .

* * *

ويَحسن بنا هنا أن نقف وقفة قصيرة « مع القضاء والقدر » .. حيث كانت قصة موسى والعبد الصالح دَرْساً عملياً لهذه القضية ، التي يتحكك بها العقل ، ويدور في فلكها مسير الانسان ومصيره ..

القضاء .. والقدر .. والإنسان ..

موضوع القضاء والقدر لا يعتبر مشكلة يُعالجها الْعقل ، ويلتمس الحلول لها ، إلا اذا نَظر اليه من جانبين معاً : جانب يتصل بالله ، وجانب يتصل بالإنسان .. وهذا يعني أن الذي ينظر في هذه المشكلة ، لا بد أن يكون من المؤمنين بالله ، أو على الأقل من المؤمنين بما وراء المادة .. أما الماديون الذين يقيمون وجودهم ، ويُسَوّون حسابهم على مستوى العالم المادي فليس القضاء والقدر من المشكلات التي تلقاهم على طريق الحياة ، وتوجه أبصارهم اليها وتَلْفت عقولهم نحوها .. إنهم يرون كلّ ما يقع لهم من خير هو باجتهادهم وتقديرهم وكلما كثُر هذا الخير ازدادوا غروراً وطغياناً لأنهم ـ حسب تقديرهم ـ استطاعوا أن ينتزعوا من الحياة هذا الذي في أيديهم وأن يكسروا قُواها المتصدية لهم على حين أن غيرهم لم يستطيعوا هذا ، ولم يتحقق لهم مثل هذا النصر ، فحَقّ لهم أن يعجبوا بأنفسهم وان تَنْتَفخ أنُوفهم كِبْراً وتعالياً .. أما إذا أصابهم شر ، فإنهم يَرْجعون على أنفسهم باللائمة ويضربونها بسياط النّدم والحسرة على ما فرطوا ولم يكن لهم من عزاء ، يتعزّوْن به حتى يموتوا حسرة وكمداً ، أو انتحاراً بأيديهم .

وتبدو المشكلة ـ عند المؤمنين بالله ، أو المؤمنين بما وراء المادة ـ هكذا :

إذا قلنا إن الإنسان مُخَيّرٌ ، كان معنى هذا أنه مطلق من كل سلطان وان ليس بينه وبين الله أو بينه وبين أية قوة أخرى غير منظورة ـ علاقة تحدّ من مجرى حياته ، أو تؤثر في تصرفاته ..

وفي حدود هذا القول ، لا مجال للنظر في القضاء والقدر ، حيث يبدو الإنسان خارجاً عن دائرة المؤثّرات التي تجعل للقضاء والقدر شأناً معه ..

وإذا قلنا ان الإنسان مُجْبر ، كان معنى هذا أن شيئاً ما وراء الإنسان

يُملي عليه ، ويؤثر في إرادته ، أو يعطل مشيته ..

وهنا تبدو الصلة واضحة بين الانسان وبين القضاء والقدر .. وهي صلة تظهر آثارها في تصرفاته ، وفي موقفه حيال كل أمر يعرض له ..

ولكن هاتين المقولتين ، لم يُسلّم العقل الإنساني بأيٍّ منهما ، تسليماً مطلقاً .. إذ كان الواقع العمليّ ينقض كل مقولة منهما ، إذا أخذ بها على إطلاقها ..

فالإنسان — كما يبدو لنفسه — حرٌ من جهة ، ومقيّد من جهة اخرى .. إنه مطلق ، تماماً — كما يبدو — ولكن يرى أن قوة خفية تأخذ عليه طريقه الى ما يريد .. قوة غير منظورة ، تُقيد إرادته المطلقة تلك ..

فهو مختار يفعل ما يشاء ، وهو مجبر حيث يفعل أو يُفعل به ما لا يشاء .. وبين الاختيار والجبر ، عاشت الإنسانية حائرة مضطربة ، قلقة .. تقول بالاختيار وتحلمُ به ، وتتمنّاه .. ولكن الواقع يفجؤها بما يُلغي هذا الاختيار ، ويعطل وجوده .. وإذا هي أي الإنسانية — ريشة في مهب الريح ، يسوقها القَدر الى حيث يشاء ...

وتقول بالجبر ، فلا يُصدّقها الواقع الذي تعيش فيه . والذي ترى صفحته في آثار تفكيرها ، وثمار إرادتها ، وعزيمتها ..

فلا هي — أي الانسانية — في الاختيار المطلق ، ولا هي في الجبر المطلق.. إنها تعيش متأرجحة بينهما .. هي في اختيار وجبرٍ معاً .. ذلك ما يشعر به كلّ انسان في ذاته ، وتشعر به الإنسانية في مجموعها . وذلك من الجلاء والوضوح ، بحيث لا ينكره إلا أهل الجدل والمراء .. فلا ينكر الإنسان أنه جاء الى هذه الدنيا على غير اختيار منه ، إذ لم يكن له — وهو نطفة ، وعلقة ، ومضغة ، وطفل — أي أثر لمشيئة او ارادة .. إنه مجرد قطعة من لحم ودم تنتقل من حالٍ الى حال ، دون وعي أو إدراك ، كما لا ينكر

الإنسان أنه حين يكبر ويبلغ مرحلة الصبا يجد أن له إرادة ، وأن وراء هذه الإرادة عقلاً يدرك ويدبّر .. كما أنه لا ينكر أن أشياء كثيرة تتدخل في مسيرة الحياة كالمرَض ، والشيخوخة ، ثم الموت وذلك مما لا إرادة له فيه . بل هو مصادم لإرادته . جاء على غير ما يريد .

وهذا القدْر الذي في الإنسان ، من جَبْر أو اختيار ، هو الذي يضع الأمر موضع الخفاء والحيرة .. ويقع من الناس موقعاً يثير الجدل والخلاف حقاً .

كم في الإنسان من جَبْر ؟ وكم فيه من اختيار ؟ لا أحد يَدْري .. فتلك مسألة تختلف من إنسان الى انسان .. بل إنها تختلف في الإنسان نفسه ، حسب الحالة التي يواجهها ، وحسب الظروف المحيطة به ، والمشاعر المستولية عليه ، على ما سنرى ، من خلال هذا البحث :

مَاالقَضَاء ؟ وَماالقَدَر ؟

القضاء :

لم يُذكر « القضاء » في القرآن الكريم بلفظه هذا ، وإنما ذكرت مُشتقاته في آيات كثيرة .. فذُكر في صُورة فعل كقوله تعالى : « فَقَضَاهن سبعَ سموات في يومين » (١٢ : فُصلت) وقوله سبحانه : « والله يَقْضِي بالحق والذين يَدْعون من دونه لا يَقْضون بشيء » (٢٠ : غافر) وفي قوله تعالى : « وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » (٢٣ : الإسراء) كذلك ورد من مشتقات « القضاء » : اسم المفعول في قوله تعالى : « وكان أمراً مقضياً »، (٢١ : مريم) واسم الفاعل في قوله سبحانه : « فاقض ما أنت قاض » (٧٢ : طه) .

والذي ينظر في هذه الآيات ، يجد تقارباً واضحاً بين المعاني التي تدور حولها مُشتقات القضاء ، وأنها تلتقي جميعاً عند معنى واحد : وهو الفصل ، والحسم في الأمر ، وأن قضاء الأمر معناه إنجازه ، وحسمه ، من جهة قادرة ممكنة مما تقضي به .. ومنه القضاء ، وهو الفصل في الخصومات ، ومنه القاضي الذي يفصل بين المتخاصمين .

وقد ذكر القرطبي في تفسيره :

« أن « القضاء » يكون بمعنى « الامر « كقوله تعالى : « وقضى ربك

ألا تعبدوا إلا اياه » :

« ويكون بمعنى « الخَلْق » .. كقوله تعالى : « فقَضَاهن سبع سموات في يومين » .

« ويكون بمعنى « الحكم » .. كقوله تعالى : « فاقْضِ ما أنت قاض » .

« ويكون بمعنى «الفَرَاغ» .. كقوله تعالى : « قُضِيَ الأمر الذي فيه تستفتيان » (٤١ : يوسف) .

« ويكون بمعنى الإرادة ، كقوله سبحانه : « إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » (٤٧ : آل عمران) .

« ويكون بمعنى « العهد » .. كقولة تعالى : « وما كنت بجانب الغَرْبيّ إذ قَضَيَنا إلى مُوسى الأمر » (٤٤ : القصص) .

والذي ينظر في هذه المعاني التي ذَكَرها القرطبي « للقضاء » يرى أنها جميعاً تنزع منزعاً واحداً ، وتلتقي عند معنى واحد ، هو الفصل ، والحسم .

فالأمر .. والخَلْق .. والحُكْم .. والفَرَاغ .. والإرادة .. والعَهْد .. كلها تنبىء عن حسم الأمر وإنجازه .. قولاً ، أو فعلا .

القــــدر :

أما القدر فقد ورد في القرآن الكريم ، لفظ (ق .. د .. ر) مصدرا ، وفعلا ، واسم فاعل .

قال تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقَدَر » (٤٩ : القمر) وقال سبحانه : « وقدَّرَ فيها أقواتها في أربعة أيّام سواء للسائلين » (١٠ : فصلت) ومعنى هذا في المصدر ، ومشتقاته : التقدير ، ووضع الشيء في موضعه المناسب له .

عن عكرمة عن الضحاك ، قال في قوله تعالى : «وقدَّرَ فيها أقواتها» أي قدّر أرزاق أهلها ، وما يَصْلح لمعاشهم ، من التجارات ، والأشجار والمنافع في كل بلدة ، ما لم يجعله في الأخرى .

* * *

من ذلك نرى أن دائرة القَدَر أشمل وأعم .. من دائرة القضاء ..

فالقَدَر تدبير .. والقَضاء حُكم ..

القَدر تَصميم .. والقَضاء تنفيذ

يقول الإمام الغزالي ..

القدر : اسم لما صَدَر مقدَّراً عن فعل القادر ..

والقضاء : هو الخلق ..

« والفرق بين القضاء والقدر ، أن القدر ، أعمّ ، والقضاء ، أخص ..

« فتدبير الأوليّات قدَر .. »

« وسَوْقُ تلك الأقدار بمقاديرها وهيئاتها إلى مقتضاتها ، هو القضاء

« القَدَر .. إذن .. تقدير الأمر بَدْءاً » .

« والقضاء .. فصل ذلك الأمر وقطعه ، كما يقال : « قَضَى القاضي »[1]

أما الفيلسوف « ابن سينا » فيرى عكس هذا ..

يرى ان القضاء أعم من القدر ، وسابق عليه ..

---

(١) من كتاب فرائد اللآلي ، من رسائل الغزالي ، ص ١٥٦ .

يقول :

« القضاء .. هو علم الله المتعلق بالكُل ، على النظام الأكمل الذي يكون في الوجود .

« والقدر .. هو إفاضة الكائنات على حسب ما في علمه . فالكل صادر عن الله ومعلوم له ، وكل ذلك بقضاء وقدر »[1] .

أما ابن عربي .. الفيلسوف المتصوف ، أو الصوفي المتفلسف ، فإنه في التفرقة بين القضاء والقدر ، على رأي يتفق ورأي ابن سينا .. فهو يقول :

« القضاء .. حكم الله .. »

« والقدر .. تقدير ذلك الحكم ..

« والتقدير .. تابع للحكم .. والحكم تابع للعلم »[2] .

ونحن على رأينا ، الذي يوافق رأي الإمام الغزالي في أن « القدر » أعم و « القضاء » أخص .. لأن آيات الكتاب الكريم توحي بهذا الفهم لكل من القضاء والقدر .

ونستطيع ان نتصور — مجرد تصور — إنْ صَحّ فهمنا هذا — أن القدر ، هو الأسباب التي أودعها الله سبحانه في المخلوقات ، بحيث لو جرَت إلى غاياتها لنَتَج عنها مُسبباتها التي تُلازمها ، والتي لا تتخلف أبداً .

فالنار — مثلا — سبب الضوء والدفء ، والإحراق .. فإذا أوقدت النار .. أخرجت ضوءاً ، وأعطت دفئاً ، وأحرقت ما يتصل بها من الأشياء التي أودع فيها الخالق من الأسباب ما يجعلها قابلة للاحتراق .. ففي كل شيء قَدَرٌ ، أي أسباب ، وكيفيات تنتج مسبّبات ، فإذا تلاقت تلك الأسباب المودعة في الأشياء ، كانت قضاء .

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني . جزء ٣ ، ص ١٥٣ .

(٢) الفصوص .. لابن عربي .

فالمسببات التي تحدث من تلاقي الأسباب بعضها ببعض ، هي القضاء فإذا تلاقت الأسباب ، فتوافقت أو تدافعت فهي في دائرة القدر .. اما ما يقع من هذا اللقاء بين الاسباب – في توافقها – أو تدافعها – من مسببات فهو قضاء .. فالقدر كمُون ، والقضاء ظهور .

الأسباب والمسببات :

اختلفت آراء المفكرين من الفلاسفة ، والفقهاء في الصلة بين الأسباب ومسبباتها .. واتسعت شُقة الخلاف بينهم حتّى بلغت درجة التضاد ..

فبينما ينكر بعضهم التلازم بين السبب والمسبب ، إذ يقرر بعضهم حتمية هذا التلازم ، وعدم تخلفه في حال أبدا .. بل إن بعضهم تمادى في هذا ، فجعل الأسباب قُوى عاملة ، تَعمْل في وعي وبَصيرة ، دون حاجة إلى من يقوم عليها وذلك حين رأوْها تعطي نَتائجها دون أن تَنْحرف ، أو تَضِل .. وكان من هذا أن آمن كثير من هؤلاء بالطبيعة ، وعدّوها كائناً عاقلا ، يحمل في كيانه مُقومات وُجوده ، مستغنيا عن مُدَبّر يُدَبّر أمرَه ، ويقوم عليه .. ولا شك ان هذه النظرة إلى الطبيعة وأسرارها ، هي نظرة محدودة ، قَصُرَت عن أن تَرَى القدرة القادرة التي تَرْبط عوالم الموجودات كلها برباط وثيق محكم ، بحيث تجعل منها كياناً واحداً ، يجري لغاية واحدة ، في حكمة ، ونظام .. « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » (٣ : الملك) .

هذا ، والفلسفة الحديثة تؤيد الرأي القائل بفاعلية الأسباب ، وبالترابط بين الأسباب والمسببات .. وما كان للفلسفة الحديثة أن تقرر غير هذا ، بعد هذا التقدّم العلمي ، الذي أحرزه الإنسان في كل مجال .. وليست القوانين التي استخدمها العِلم في كشف أسرار الطبيعة إلا من نَسيج الأسباب وتفاعلها فهذا الاطراد في ظواهر الطبيعة ، هو الذي أتاح للعلماء وضع قوانين ثابتة

لطبائع الأشياء ولما تُحدثه الأسباب من احتكاك بها .. وبهذا أمكن تسخير قوى الأشياء بمقتضى هذه القوانين ، كما أمكن التنبؤ بما سيحدث قبل حدوثه اعتماداً على معرفتنا السابقة بخواص الأشياء ، وبالآثار التي تحدث عند تحريك أسبابها المودعة فيها .. ولم يسألوا أنفسهم من أودع في تلك الأسباب خواصها ؟ ومن أعطاها القدرة على إخراج ما فيها من مسببات ؟ أهي الصُّدْفَةُ كما يقولون ؟ وهل يعترف العلم الحديث بالصدفة ويؤمن بها ؟ إنها غيب لا يلتقي مع العلم القائم على المحسوسات التي تخضع للتجربة المحسوسة المنظورة .. فالقول بالصدفة يجرد العالم الطبيعي من أهم خصائصه..

ومن جهة أخرى رأى الاشاعرة — وهم الذين يُمثّلون الرأي السُّنّيّ — أن لا تلازم بين الأسباب والمسببات ، ورفضوا ان يسلموا بوجود أي قانون للطبيعة ، واستبعدوا البديهة القائلة : بأن الأسباب المتماثلة تولد نتائج متماثلة ..

وقد بَنَوْا رأيهم هذا ، على أساس أن التّلازم بين الأسباب والمسببات ، فيه تَحْديد لِقدرة الله على كل شيء ، إذ أن هذا التلازم يحد من قدرة الله ، ويجعل للأسباب قوة ملزمة لله .

وهذا رأي لا نسلم به أيضاً ، ولا نرتضيه رأياً يراه المسلم حيث لا نرى في التلازم بين الأسباب والمسببات ما يراه الأشاعرة ، من أن في ذلك تحديداً لقدرة الله وقوة ما يلزمه له .

فالله سبحانه وتعالى ، قد أقام الوجود على نِظام ، وأجراه على سنن أودَعها فيه .. كما يقول سبحانه : « لا الشّمْسُ ينبغي لَها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌّ في فَلَكٍ يسبحون » (٤٠ : يس) وكما يقول جل شأنه « الّذي أعطى كلَّ شيء خَلقه ثم هدى » (٥٠ : طه) .. فإذا كان من نظام الكون الذي أوجده الخالق جل وعلا ، أن الشمس تطلع من الشرق ، وأن الأرض تدور حولها .. فهل في هذا تحديد لقدرة الله ؟ وهل

في خضوع هذه الاكوان لهذا النظام المودع فيها الا استجابة لقدرة الله وخضوع لمشيئته ؟ أليس الله سبحانه هو الذي أجراها هذا المجرى ، وأقامها على هذا النظام ؟

إن خروج هذه العوالم عن وضعها الذي أقامها الله عليه ، وأجراها فيه ، هو عصيان لأمر الله ، وتمرد عليه ، وخروج على سلطانه ، وتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ..

وللفيلسوف المسلم « محمد إقبال » رأي يجري مع رأي الاشاعرة ، في نتائجه ولكنه يختلف معهم في مقدماته ..

فإقبال يرى أسباباً قائمة في الأشياء .. ولكنه يرى — مع هذا — أن الاسباب تعمل في ظل قدرة ، حكيمة ، عليمة .. ومن ثم فإن الحَوادث التي تنتجها الأسباب ليست مواليدَ آلية ، جاءت متكررة ، وإنما كل حادثة لها ذاتية مستقلة . إنها خلق جديد ، تقوم القدرة الإلهية على إبداعه وتكوينه ..

الأشاعرة ، لا يعترفون بوجود أسباب مطلقا .. وإنما يقولون بالخلق المُتجدد من غير أسباب .

و « إقبال » يقول بالأسباب ، ولكنها — في رأيه — أسباب يَقْظَى واعية ، تتخلق منها الحَوادث ، تَخلّقاً يحفظ لكل حادثة ذاتيتها المستقلة .. فلا تنتظم في ركب حوادث صماء متتابعة ، متماثلة .. لا نهاية لها ..

يقول « إقبال » :

« فتَقْديرُ شَيء ما ، ليس قَضاءً غاشِماً يؤثر في الأشياء من خارج .. ولكنه القوة الكامنة ، التي تُحقق وجود الشيء وممكناته التي تقبل التّحقّق ، والتي تكمن في أعماق طبيعته ، وتحقق بالتالي وجودَها في الخارج ، دون إحساس بإكراه من وسيط خارجي ..

« ومن ثم فإن تكامل وحدة الدَّيْمومة ، لا تَعْني أن هناك حوادثَ

تامة التكوين ، اشبه بأن تكون في أحشاء الحقيقة ، لتسقط منها واحدة واحدة ، كما تسقط حبات الرمل في الساعة الرملية ..

« والواقع أن كل نشاط خالق ، هو نشاط حُر .. فالخَلْق يضاد التكرار ، الذي هو من خصائص الفِعل الآلي .. » [1] .

والذي نَوَدّ أن نقرره ، هو أن في كل شيء أسبابا مودعة فيه ، وأن الأسباب تُنْتج مسبباتها ، عند تحريكها بأسباب أخرى مناسبة لها ...

أما التلازم بين الأسباب والمسببات ، فليس يَعنينا أن يكون هذا التلازم محكماً مصمتاً لا يتخلف ، أم أن تكون فيه خلخلة تسمح بتخلف المسببات من الأسباب ، ما دمنا نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى ، هو خالق الأسباب ، وهو خالق المسببات ، والتلازم أو غير التلازم هو مما قضت به حكمته ، حكمته ، وشاءته مشيئته وعلمه ..

ولكن الذي يجب أن نعرفه ، وأن نقيم وجودَنا عليه ، هو أن مِلاك أمرنا في هذه الحياة قائم على ان نحرك الأسباب المودَعة في الأشياء ، على الوجه الذي اهتدت إليه عقولنا ، وأن ننتظر النتائج المقدرة لهذه الأسباب على حسب ما نتوقعه ونرجوه منها .

فنحن نبني حياتنا على المستقبل أكثر من الحاضر الذي نعيش فيه .. وهذا المستقبل إنما نَبْنيه على أسباب نحركها ونرقب ثمرتها .. إننا نزرع وننتظر الحصاد ، وهيهات أن يَزْرع زارع ولا يَجْني ثمرة ما زرع ، وهيْهات أن نجني ثمراً دون أن نَزْرع ما يعطي هذا الثمر .. هذا ما تجري عليه حياتنا ، ويقوم عليه تقديرنا ، وهو ما ينبغي أن نتعامل في حياتنا على أساسه .. أما إذا تخلفت المُسببات التي ننتظرها ، عن الأسباب التي أخذنا بها ، فذلك قد يكون لخطأ في تقديرنا ، أو قصور في إدراكنا ..

---

(١) تجديد التفكير الديني الاسلامي .. لإقبال ، ترجمة الأستاذ عباس محمود ، ص ٦١.

يقول الفيلسوف « إقبال » :

فالنفس — وهي مطالبة بالعيش في بيئة مركبة — لا تستطيع أن تحتفظ بوجودها في تلك البيئة دون أن تَردها إلى نظام يُعطيها — أي النفس — نوعاً من الضمان فيما يتعلق بسلوك الأشياء الموجودة حولها ..

« وعلى هذا ، فإن نَظَر النفس إلى بيئتها باعتبارها نظاماً (مُكَوّناً) من عِلّةٍ ومعلول ، هو وسيلة لا يمكن الاستغناء عنها ..

« والواقع أن النفس — بتأويلها للطبيعة على هذا النحو — تفهم بيئتها وتسيطر عليها ، فتحصل بهذا على حريتها ، وتزيدها قوةً ونماءً »[1] .

وهذا هو الرأي الذي يتّفق مع طبيعة الإنسان ويَلْتقي مع الإيمان بالله وبعلمه المحيط بكل شيء وبقدرته القائمة على كل شيء .. « ألا لَه الخَلْق والأمر تبارك الله رب العالمين » (الأعراف : ٥٤) .

* * *

ونود هنا بعد هذه المقدمة ، أن نديز النظر مرة أخرى إلى قصة موسى والعبد الصالح ..

ففي هذه القصة دَرس عَملي ينكشف منه وَجْه القضاء والقَدر ، ومدى ما يمكن أن تَطولَه يدُ الإنسان ، وتَبلغه قدرته ، تحت سلطان القضاء والقدر وما يعمل فيه الإنسان من أسباب ، وما يقع له من مسببات .

لقد كان موسى في هذه القصّة ، ممُثلاً الإنسانية في حدودها التي أقامها الله عليها ، وفي تصرفاتها مع الأشياء على مُقتضى ما تَعلْم منها بإمكاناتها المحدودة ، على حين كان العبدُ الصالح ، مُمَثّلا للعالم العُلوي ، عالم ما وَراء المحسوس ، يَسْتملي معارفه من عالم النور .. فيَرى بعين الغيب

---

(١) تجديد التفكير الديني الإسلامي ، ترجمة الأستاذ عباس محمود ، ص ١٢٤ .

عواقب الامور ، ويتّصل إلى نتائجها الحاسمة ، قبل أن تتحرك الأسباب ، وتتولد المسببات .

موسى يُمثل الإنسان ، من حيث هو كائن محدود القدرة ، لا يرى من الأشياء إلا ما على السطح ، أو ما وراء السطح بقليل .. أما أعماق الأشياء وأمّا صميمها فليس له إليها سبيل مهما يبلغ علمه ، ومهما تكن معارفه .. إن له حدوداً لا يتجاوزها ، وله مجالات لا يخرج عليها ، وهو في هذه الحدود يعمل ، وفي هذه المجالات يتحرك ــ حسب تفكيره وتقديره ..

ثم مع هذا ، فإن الاشياء تتحرك حركتها المقدورة لها .. وهي حركات قد تتفق مع حركات الإنسان ، وقد لا تتفق ..

والشيء الذي ينبغي أن نؤكده، هو أن العلم والمعرفة ، يكشفان للإنسان من حقائق الأشياء ، بقدر ما يحصّل الإنسان من علم ومعرفة .. فكلما ازداد علماً ومعرفة اتسعت أمامه الآفاق التي ينظر فيها إلى هذا الوجود ، وتكشف له حقائق كثيرة كانت محجوبة عنه وراء هذه الآفاق التي أخفاها عنه الجهل ، وضآلة المعرفة ..

والذي نود أن نؤكده أيضاً ، هو أنه مهما بلغ الإنسان من العلم والمعرفة فلن يبلغ من العلم بحقائق هذا الوجود ، إلا قدْراً ضئيلاً ، لا يعْدل حبة رَمْل من هذا الكون العظيم .. والله سبحانه وتعالى يقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (٨٥ : الإسراء) .. وعلى هذا فإن الإنسان سيظل تحت سلطان القدر ، عاملا في ظلّ هذا السلطان ، يُعينه على ذلك ما له من عقل ، وما كشف له هذا العقل من قبسات من العلم والمعرفة ، يرى بها مواقع أقدامه ، وليس أبعد من هذا .

* * *

وهنا نستطيع أن نحدد مكان الإنسان من القدر ، ونتعرف إلى المجال

الذي يعمل فيه كلٌّ منهما : الإنسان والقدر ..

فالقَدر هو « دُولاب » ينتظم الوجود كله ، وتتحرك فيه كل أجزائه ، حسب القوى التي أودعها الخالق جل وعلا في كل موجود .. وكل موجود يتحرك حركته في الاتجاه ، وفي المدى المقدور له .. وأقرب شبه لهذا ما نرى في « دولاب » بخاري أو كهربي ، يدور بجميع أجهزته وأجزائه ، ثم إن جميع هذه الأجهزة ، وتلك الأجزاء ، مع اختلاف حركاتها تحقق آخر الأمر غاية واحدة وتعمل جميعها لهدف واحد .. فلا يرى الرائي منها إلا حركة واحدة ، والا اتجاهاً واحداً .. هكذا يرى المهندس الميكانيكي أو الكهربي حركات الجهاز ، الذي يقوم عليه ، ويديره .. إنه يعرف وضع كل قطعة منه ، كما يعرف وظيفتها ودورها الذي تؤديه .

أما من ينظر إلى هذا الجهاز نَظَراً سطحياً بغير علم ، فإنه لا يرى فيه إلا اشياء صاخبة مضطربة ، يضرب بعضها وجه بعض .

كذلك هذا الوجود الذي نحن فيه ، وهذا العالم الذي تُقِلّنا أرضه ، وتظلنا سماؤه — حيث ننظر ، فلا نرى — لعلمنا القاصر .. إلا فَوْضى ، وإلاّ اضطراباً وإلا تخالفاً وعناداً بين كل موجود وموجود ، الأمر الذي يوقع بين الموجودات هذا الصراع الحادّ المتصل .. سواء في ذلك عالم الجماد ، وعالم الأحياء .. فالبحر تَهيجه العواصف وتُثيرُه الرياح ، وهو بالتالي يَصْخَب ويموج ، ويضرب بأمواجه العاتية في أصول الجبال ، فتتصدع وتنهار .. والجبال بِدَوْرِها تتصدّى للرياح العاتية فتلطم وجهها ، ولِلسّحب السّائرة ، فتمزّق أوصالها وتُلقي بها تحت أقدامها .. وكذلك الشأن في عالم النبات والحيوان والإنسان هي في صراع دائم ، فيما بينها وبين الموجودات القريبة أو البعيدة منها .. والإنسان بخاصة يواجه الموجودات كلها ، ويدخل معها جميعها في صراع لا يلقي معاً سلاحه إلا اذا استسلمت له ، وأعطته ولاءها ..

هكذا يبدو الوجود غارقاً في الفوضى ، لِمن ينظر إليه نَظَراً شارداً لا يستصحب معه فيه عقله ، ولا يفتح له قلبه .

أما حقيقة هذا الوجود، فهو نظام محكم دقيق، متناغم منسجم رائع في تجاوب بَيْن كلّ ذرةّ من ذراته ، وكل موجود من موجوداته ... « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البَصَرُ خاسئاً وهو حسير » (٣ — ٤ : الملك) .

أرأيت إلى جماعة كبيرة من العازفين على مجموعات متعددة من آلات الموسيقى يقومون على أداء لحن رائع منسجم متناغم ؟

إن الذي لا يُحسن لغَةَ الموسيقى ، ولا يُعطي أذنه وقلبَه لهذا اللحن الذي يجتمع من هذه الأنغام التي ترسلها أيدي العازفين ، وأفواههم وأرجلهم من تلك الآلات التي يقومون بالأداء عليها — لا يرى إلا فوضى مجنونة متخبطة ولا يسمع إلا ضجيجاً وصَخباً وتلاطماً .. أما حقيقة الأمر ، فهو — عند الموسيقي — على خلاف ذلك تماماً .. إنه يرى تآلفاً وتلاقياً ، ويسمع تَجاوباً وتنَاغُماً ، فيجد لذلك روح روحه ونشوة فؤاده ، ويقظة وجدانه ..

ذلك أشبه بالوجود في نظر من يَعْلَم ومن لا يعلم .

وننظر مرة أخرى إلى ما كان بين موسى والعبد الصالح .

لقد كان موسى يسير في إتجاهه الإنساني .. ويأخذ طريقه على قَدْرِ ما ينكشف له من عوالم الوجود ..

على حين كان العبد الصالح يسير في اتجاه الدولاب القَدَري .. ويأخذ الأمور على الوجه الذي تستقيم فيه مع حركة هذا الدولاب القَدَري .. وقد وقع الصّدام ، بل والصراع بين الاتجاهين .

والواقع أنه لم يكن ثمة خلاف بين هذين الاتجاهين.. إذ كل منهما منته إلى نهاية واحدة ، يلتقيان عندها..

وكل ما في الأمر ، أن الحركة القَدَرية في هذه المرحلة القصيرة التي صحب فيها موسى صاحبه ، قد وَجدت في العبد الصالح مُفَسِّراً لها ، وكاشفاً عن وجهها ، ولولا هذا لظلّت في عيني موسى وفي تفكيره قَدَراً لا يَدْري له مفهوماً ، ولا يعرف له متأولا .. تماماً كما يقع لعيني الإنسان منّا كلّ يوم من مئات الأحداث في نفسه ، وفي غيره ، دون أن يعرف وجه الحكمة فيها .. ولو أننا وجدنا مثل العبد الصالح من يكشف لنا عما وراء الأحداث ، لَمَا أصابنا هَمٌّ ، ولَمَا بِتْنَا على قَلَق ، لِمَا وَقع أو يُتوقــع من سوء ، ومــا نزل أو ينزل من مكاره ، ولظهرت لنا هذه الأحداث آخذةً أتم وضع وأصلحه لنــا ، ولنظام الوجود العام كله .. وهذا ما تشير إليه المأثورة الاسلامية : « لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع » .

وإذن .. فالماديّون الذين يُنكرون القَدَر ، هم مُحقّون ومبطلون في آن ..

هم محقون ، لأن كل ما يُنسب إلى القدر ، ويُضاف اليه ، ليس شيئاً خارجاً على سُنن الكون ، ولا مطلقاً من العلل والأسباب التي تَحْكم الوجود وتُمسك بكل موجود .. وغاية ما في الأمر ، أن هذه العلل ، وتلك الأسباب مطوية عنا ، بعيدة عن واقع عِلْمنا ، وأنها لو انكشفت لنا لما كان فيها إلا ما نراه في كل أمر نعلم حقيقته ، ونَعلم العِلل والأسباب المتحكمة فيه ..

وهم مبطلون .. لأن العلم الذي في أيديهم ، والذي يستطيعون به النظر في الوجود ــ هو علم قاصر محدود ، لا يحمل من الطاقات الضوئية ، إلا شعاعات باهتة متكسرة ، لا تنفذ إلى أعماق الوجود ، ولا تكشف إلا

بعض ما يظهر على حافاته وحواشيه .. وعلى هذا ، فإنه ستظل موجودات الوجود كلها — فيما عدا هذه القشور منها — بعيدة عن متناول العلم ، مجهولة الأسباب والعلل .. وهي التي تطلع علينا حين تطلع ، قَدَراً مقدوراً .. لا نعرف لها تأويلا ، ولا ندري لها تفسيرا .

* * *

والعبرة الماثلة لنا من قصة موسى والعبد الصالح ، هي أن نُلزم أنفسنا الأخذ بالأسباب الظاهرة لنا ، وأن نصرف أمورنا بمقتضى هذه الأسباب التي تقع في تفكيرنا وتقديرنا ، والاّ نتطلع إلى ما وراء ذلك .. ففي هذا — وفي هذا وَحْدَه — ضمان لاستقامة تصرفاتنا ، مع ما يصلح عليه أمرنا ، وأمر المجتمع الإنساني الذي نعيش فيه ..

إن القُوى المحدوده التي أودعها الله تعالى فينا ، هي التي تتفق اتفاقاً تاماً مع الوجود الذي أقامنا الله عليه ، ومع الموجودات التي أوجدنا الله معها..

فجوارحنا ، ومدركاتنا ، مضبوطة على أعدل وضع يمكن أن يعطينا من الحياة أكبر قدر يمكن أن نأخذه منها ، وأن ننتفع به على الوجه الملائم لنا .. ولو خرجت مدركاتنا وحواسنا عن هذا الحدّ — بالزيادة أو النقص — لاضطرب وجودنا ، وفسد نظام حياتنا ..

فالماء الذي نشربه ، والذي نراه نظيفاً ، سائغاً — إذا نظرنا إليه بما وراء أبصارنا — كالمجهر مثلا — رأيناه مَسْبَحاً لجيوش كثيرة من الجراثيم .. وهو بهذه النظرة يتحول — في تصورنا — من طيّب سائغ ، إلى ماءٍ تعافه النفس ، وتَقزّز منه ، وتموت عطشاً دون ان تُقدم على شربةٍ منه .

وكذلك قل في كل ما نأكل وما نشرب . إننا لا نرى في مأكولنا ومشروبنا ما نكره ، ولكننا إذا نظرنا اليه بعيون مجهرية ، تبين لنا أن هناك عوالم سابحة فيه ، من غرائب المخلوقات ، تأخذ طريقها إلى جوفنا ، دون

أن نراها ، فلا يهنأ لنا مع ذلك طعام ، ولا يسوغ لنا شراب . وقلْ مثل هذا في المَسْمُوعات ، والمَشْمُومات والمُذوقَات ، إذا نحن جئناها بحواس أقوى أو أضعف من حواسنا .. انها تقع منا موقعاً بغيضاً كريهاً ..

من الخير لنا ، إذن ، ومن الرحمة بنا أن نعيش فيما خَلَقَنا الله بما خلقنا به ، وألاّ نذهب إلى أبعد مما قَدّر لنا .. بل نجعل الأسباب المعروفة لنا هي الأساس الذي نتصرف بمقتضاه ، في تعاملنا مع الحياة ، وملابستنا للموجودات .. ثم ليكن قبل هذا كله ، إيماننا بقدرة الخالق ، وبتقديره لكل شيء ، وأننا إنما نعمل لنحقق إرادته مما أودع في الكائنات من أسباب وبما جَعل لها من مُسّببات .. فهذا الإيمان هو الذي يسند الإنسان في صراعه مع الحياة ، وهو الذي يشد عزمه ، ويدفع به إلى غايات لا يتطلع إليها أولئك الذين فقدوا هذا الإيمان ..

وشتّان بين من يعمل ، وهو على يقين بأنه في رعاية رَبّ الأرباب ، وأقوى الأقوياء ، وبين إنسان يعمل معزولاً عن الشعور بهذا الإيمان .. يعمل في حدود جهده البشري المحدود ، دون سند أو ظهير ..

إن النّعمة في كلّ صورة يتلقاها المرء عليها ، لا يَدْخل منها على قلب المؤمن بالقَدَرِ ، زهْوٌ ولا خيلاء .. لأنها من عند الله .

وان البلاء ، والشّدة ، والضُر .. لا يقع منها على قلب المؤمن بالقَدَر ، يأس ولا قنــوط من روح الله .. « إنه لا ييــأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .. الكافرون بالله ، وبما قَدّر الله ..

* * *

والقَدَر بهذا المفهوم لا يُخلي الإنسان من مسئولياته، إزاء الحياة، وإزاء التكاليف المنوطة به فيها .. فهو مطالب بأن يجهد جهده ، ويُبلي بلاءه في كل أمر يعرض له ، وأن يلقاه بكل حوله وحيلته ، وأن يجيء إليه بعلله

وأسبابه ، التي يراها ويقدرها .. فإن هو فرّط أو قصّر ، كان ملوماً ، وكان أهلاً للجزاء الذي يناسب تفريطه ، وتقصيره ..

فليس إيمان المؤمن بالقَدَر ، وبأنه صائر آخر الأمر إلى المصير المقدور له — ليس هذا الإيمان بالذي يُخلي المؤمنَ من المسئوليات المنوطة به .. فهو مطالب بأن يُقدِّر ويفكر ، ويُدبّر ، ويحمل بالقَدْر الذي يُسعفه به تفكيره ، ويحتمله جهده ..... وهذا — على الأقل — هو الذي يُعفيه من المسئولية أمام عقلة وضميره .

* * *

وفي نظرة الإسلام إلى القدر ، تلك النظرة التي يَبْدو منها القَدَر غائباً كحاضر — في هذه النظرة يقوم القَدَر على الناس ، سُلطاناً رَحيماً ، يَفيئون إلى ظلّه الظليل ، إذا هم أضناهم السّير ولَفَحَهم الهَجير وأقعدهم الإعياء..

فالقَدَر في التفكير الاسلامي ، لا يلتقي به المُسلم إلاّ عند آخر المَطاف من سعيه الذي سَعَى ، وعمله الذي عمل ، لا أن يُقدمه بين يَديْ كلّ عمل ، فإن هذا من شأنه أن يَقْعد بالإنسان عن أن يَعمل أو أن يسعى ، تاركاً زِمامه للقَدَر ، يتصرف كيف يشاء ..

وفي هذا اللّقاء الذي يَلتقي فيه الانسان مع القدر — بَعد كلّ عَمَلٍ لا قَبْله — في هذا اللقاء يُلْقي الانسانُ بوجوده كله ، وبما أصاب ، أو أُصيب به — يُلقى بهذا كله في ساحة القدر .

فإن يكن قد أصاب خَيراً لم يقل قولَة قارون من قبل : « إنما أوتيته على علم عندي » (٧٨ : القصص) بل يقول قولة المؤمنين الشاكرين : « هذا من فضل ربي لِيَبْلُوني أأشكر أم أكفر » (٤٠ : النمل) .

وإن أصابَتْه مصيبة ، أو مَسّه ضُر ، لم يقل : « أنّى هذا ؟ » (١٦٥ : آل عمران)

بل يقول : « إنا لله وإنا اليه راجعون » (١٥٦ : البقرة) أو يقول : « فَصَبْرٌ جَميل » (١٨ : يوسف) .

امّا غير المؤمن ، فإنه لا يلتقي بهذا الوجه الكريم في السّراء أبداً ، ولا يتَلقّى هذا العزاء الجميل في الضرّاء أبَداً ..

إنه إن اصاب خَيْرا ، أشِرَ وبَطِرَ ، وطَغَى وبَغى ، وإن أصابته مصيبة احترق بنارها ، كَمَداً وحسرة ، دون أن يَجد لمصيبته عَزاء من ايمان ، أو مواساةً من قَدَر .

وانظر إلى هذا العزاء الجميل الذي عزّى الله سبحانه وتعالى به النبي والمؤمنين فيمن أصيبوا فيهم من الشهداء في غزوة أحد : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزًّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير » (١٥٦ : آل عمران) .

و « لو » هذه ، هي التي تُدْمِي قلوبَ الذين لا يؤمنون بالله ولا يستسلمون لِقَدَر الله ، في أعقاب الشدائد والمُلِمّات ، وهي التي تُنْكَأ جِراحهم كُلّما عملت يدُ الزمن على التئامها .

وفي الحديث الشريف كما رواه مسلم : « احرص على ما ينفعُكَ واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تَقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا؟ ولكن قُلْ قَدَّر الله ، وما شاء الله فعل .. فإن لَو تفتح عمل الشيطان » .

* * *

وهنا أمر نحب أن نقف عنده ، وهو أن الرضا ، الذي يستقبل به المؤمن ما يقع به من مُقدّرات القدر — ليس هذا الرضا عَن قهر وإلزام ، وإنما هو عن إرادة واعية مدبّرة مقدرة .. ذلك أنه ليس من الدّين ، ولا في الدّين — أعني الإسلام — ما يَحُول بين الإنسان وبَيْن حقه الطبيعي ، في

معالجة الواقع ، وفي محاولة تغييره بكل ما يملك من وسائل كريمة سليمة ، ناظراً إلى الله ، طامعاً في رحمته ، مستمداً العون والتوفيق من لدن رب رحيم كريم ..

إن الرضا بالواقع الكريه البغيض ، ليس في الإسلام ، ولا من الاسلام لأن ذلك معناه ، إهدار لعقل الإنسان أن يفكر ، وتعطيل لإرادته ان تعمل ووقوف بالحياة أن تتحرك ، بل وتمكين للشر أن يستشري ، واعتراف للباطل أن يقيم حيث شاء .. آمناً مُطمئناً ، لا يلقاه أحد بإنكار ، ولا يزعجه مُنْكِرٌ بسوء ..

وعلى كلٍّ .. فإن هذا غيرُ سبيل الأحياء في الحياة ، كما هو غير سبيل الدين والمتدينين ..

وتاريخ الإسلام ، يَحكي فصولاً طويلة ، مثّل فيها هذا الدور الغَبيّ الدّخيل على الإسلام ، فقتل في الناس الهِمَم الصادقة ، وأطفأ من صدورهم وَقْدَة العَزَمات المتوثبة لملاقاة البغي وردع الباغين .. وذلك حين قَام في الناس من يدعونهم إلى الاستسلام للقدر ، والرّضا بالمقدور .. وتلك كلمة حق أريد بها باطل.. إذ كانت أشبه بمخدر ثقيل، امات في الناس مشاعر الإحساس بكل ظلم فاستساغوا طعمه ، واستناموا في ظله ، يَجْتَرّون كلّ ما يُلقى إليهم من عسف ، وما يُساق اليهم من بلاء .. وإنه لولا هذا ما استطال حُكم أمراء السوء ، ولا امتدّ سلطان الملوك والسلاطين الباغين المفسدين ، دون أن يلقاهم أحد بنكير ، أو يؤاخذهم مؤاخذ بما اقترفوا من مظالم ، وما ارتكبوا من آثام ..

إن مهمة الرسل ، والمصلحين في الناس ، إنما هي في صميمها ثورة على أوضاع قائمة جائرة ، وحرب على مظالم صارخة ، هي في نظر الحق والعدل منكراتٌ يجب أن تزول ، وهي عند البغاة والمتسلطين حقّ مشروع ، ثم هي عند أدعياء الإيمان قَدَرٌ مقدور !!

ولا نريد أن ندع هذا البحث في « القضاء والقدر » قبل ان نَذْكر رأياً « لابن القيم » في هذه القضية ، يعتبر – في رأينا – مقطع الفصل فيها ، عند المؤمنين بالله ، وبما لله من أحكام في عباده ..

يقول ابن القيم في كتابه : « روضة المحبين » :

« فإحكام العالم العُلوي والسفلي وما فيهما ، موافقة للأمر :

« إما الأمر الدِّيني ، الذي يُحبه الله ويرضاه ، وإمّا الأمر الكوني الذي قدره وقضاه ..

« وهو سبحانه لم يُقدّره – أي الأمر الكوني – سُدى ، ولا قضاه عَبَثاً ، بل لما فيه من الحكمة والغايات الحميدة، وما يترتب عليه من أمور يُحِبّ غاياتِها وإن كره أسْبابها ومَبَادئها .

« فإنه .. سبحانه وتعالى – يحب المغفرة ، وإن كره معاصي عباده ، ويحب السّتر ، وإن كره ما يَسْتر عبدَه عليه ، ويُحبّ العِتْق وإن كره السبب الذي يُعْتَق عليه من النار .. ويُحب العفو ، وان كره ما يَعفو عنه من الأوزار .. ويُحب التوابين وتوبتهم ، وان كره معَاصيهم التي يَتوبون إليه منها .. ويُحب الجِهاد وأهلَه ، بل هم أحب خلقه إليه ، وإن كره أفعال من يُجاهِدُونهم .

ثم يقول :

« وهذا باب واسع ، قد فتح لك ، فادخل منه ، يطلعك على رياض من المعرفة مونقة ، مات من فاتته بحسرتها ، وبالله التوفيق .

ثم يقول :

« وسرّ هذا الباب ، أنه – سبحانه – كامل في أسمائه وصفاته ، فله الكمال المُطلَق ، من جميع الوجوه ، الذي لا نقص فيه بوجه ما ..

« وهو — سبحانه — يحب أسماءه وصفاته ، ويحب ظهور آثارها في خلقه ، فإن ذلك من لوازم كماله .. »

«فإنه — سبحانه — وَتَرٌ يُحِبّ الوتر .. جَميل ، يُحب الجَمال.. عَليم ، يحب العُلماء .. جَوَاد ، يحب الأجواد .. قويّ ، والمؤمن القويّ أحب اليه من المؤمن الضعيف .. حَيِيٌ ، يحب أهل الحياء .. وَفِيٌ ، يُحب أهل الوفاء .. شَكُور يُحب الشاكرين .. صَادق ، يحب الصادقين .. مُحسن ، يحب المحسنين .

« فإذا كان — سبحانه — يُحب العفو ، والمغفرة ، والحلم ، والصفح ، والستّر لم يكن بُدّ من تقدير الأسباب الّتي تَظهر آثار هذه الصّفات فيها ، وَيستَدِلّ بها عبادُه على كمال أسمائه وصفاته ، ويكون ذلك أدعى الى محبته ، وحمده وتمجيده ، والثناء عليه بما هو أهله .. فَتَحصل الغايةُ الّتي خُلِق لها الخلق وإن فاتت من بعضهم ، فذلك الفوت سبب لكمالها وظهورها.

« فتضمن ذلك الفوت المكروه له — سبحانه — أمراً هو أحبّ اليه من عدمه » ..

« فتأمل ، هذا الموضع حقّ التامل » ..

« وهذا ينكشف يوم القيامة للخليقة بأجمعهم ، حين يَجمعهم في صعيد واحد ، ويُوصّل لكل نفس ما يَنبغي إيصاله اليها من الخير والشر ، واللذة والألم ، حتّى مثقال الذرة ، ويوصّل كلّ نفس الى غاياتها الّتي تشهد هي أنها أولى بها ..

« فحينئذ ينطق الكون بأجمعه ، بحمده ، تبارك وتعالى ، قَالاً (اي قولاً) وحالاً ، كما قال سبحانه وتعالى : « وتَرَى الملائكة حافّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » فَحذِفَ فاعل القول ، لأنه غير معين ، بل كل أحد يحمده على

ذلك الحكم الذي حكم فيه .. فيحمده أهل السموات ، وأهل الأرض ، والأبرار والفجار والجن والانس .. حتى أهل النار . قال (الحسن البصري) وغيره : « لقد دَخلوا النّارَ وإن حَمْدَه لفي قلوبهم » .

« وهذا — والله أعلم — هو السر ، الذي حذف لأجله الفاعل ، في قوله :

« قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها » وقوله : « وقيل ادخلا النار مع الداخلين » كأن الخلق كله ، نطق بذلك وقاله لهم .. والله تعالى أعلم بالصواب » ..

* * *

الخضر ، وهل هو حي ؟ :

تجيء عن الخَضِر — صاحب موسى — عليهما السلام ، أقوال كثيرة عن الخضر وانه حيّ ، يلتقي به بعض الناس — وخاصة المتصوفة — ويتحدث اليهم ، ويلقنهم المعارف .. وقد ذكر ذلك عن شيخهم الأكبر « ابن عربي » من أنه التقى كثيراً بالخَضِر ، وتلقّى عنه كثيراً من العلم اللدني ! ! .

وخير من بحث هذه المقولة بحياة الخضر ، وفَنّد مدّعيات المدّعين لها ، ابن القيم — رضي الله عنه — في كتابه : « المنار المنيف ، في الصحيح والضعيف » أي من الحديث ..

يقول رضي الله عنه :

« الأحاديث التي يذكر فيها الخَضِر ، كلّها كذب ، ، ولا يَصِحّ في القول بحياته حديث واحد .. » .

ثم يأتي ابن القيم بعد هذا بما ذُكر عن الخضر من أحاديث موضوعة عن حياته .

فيقول :

« كحديث أن رسول الله ﷺ ، كان في المسجد ، فسمع كلاماً من ورائه ، فذهبوا ينظرون فإذا هو الخضر » ..

ونقول ان هذا الحديث ناطق بانه موضوع باكثر من وجه :

فأولاً : أنه لم يجيء من وراء النبي ﷺ ، ولم يلقه مواجهة ؟ وأليس هذا هو الاول في هذا المقام ؟

وثانياً : أن النبي ﷺ لم يلتفت اليه ، ولم يتعرف عليه ، بل ان أصحاب النبي هم الذين ذهبوا ينظرون اليه ..

وثالثاً : ما جاء في الحديث : « فإذا هو الخضر » .. وإذا هنا فجائية ، تشير الى أنهم إذ رأوه عرفوه في الحال ، وكأنهم كانوا على موعد للقائه.

ورابعاً : ان الحديث لم يكشف عن شيء مما جاء له الخضر ، فلم جاء إذن ؟ .

ثم يقول ابن القيم فيما يروي من الأحاديث الموضوعة :

« يلتقي الخضر وإلياس كل عام »

ونقول : ماذا يحمل هـذا الخـبر من دلالة على هذا اللقاء ؟ ولم يلتقيان كل عام ولا يلتقيان كل يوم ؟ وهل التقاؤهما في عالم الروح أو في هذا العالم ؟ وإذا قيل بأن الخضر حي في هذه الدنيا ، فهل كذلك شأن إلياس ؟

وحديث آخر من الأحاديث ، يذكره ابن القيم ، وهو :

« يجتمع بعرفة جبريل ، وميكائيل ، والخضر .. » !

ثم يعقب ابن القيم على هذه الاخبار بقوله :

« سئل إبراهيم الحربي عن تعمير الخضر ، وانه باق ، فقال : من أحال على غائب لم ينتصف منه ، وما ألقي هذا بين الناس إلا شيطان » .

« وسئل البخاري عن الخضر والياس : أهما أحياء — أي في هذه الدنيا — فقال : كيف يكون هذا ، وقد قال النبي — ﷺ — : « لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد » [1] .

« وسئل عن ذلك كثير غيرهما — أي ابراهيم الحربي والبخاري — من الأئمة فقالوا : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت ، فهم الخالدون » (الانبياء : ٣٤) .

« وسئل عنه الامام ابن تيمية ، رحمه الله ، فقال : « لو كان حياً لوجب عليه ان يأتي النبي ﷺ ، ويجاهد بين يديه ، ويتعلم منه ، وقد قال النبي ﷺ يوم بدر : « اللهم إن تهلك هذه العصابة — يشير الى أهل بدر من المهاجرين والأنصار — لا تعبد في الأرض » وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، معروفين بأسمائهم واسماء آبائهم وقبائهم .. فأين كان الخضر حينئذ » ؟ .

ويمضي ابن القيم قائلاً :

قال ابو الفرج بن الجوزي : « والدليل على ان الخضر ليس بباق في الدنيا أربعة أمور : القرآن ، والسنة ، واجماع المحققين من العلماء والعقول » ..

أما القرآن ، فقوله تعالى : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد » .. فلو دام الخضر كان خالداً ..

وأما السنة ، فذكر الحديث : « أرأيتكم ليلتكم هذه ؟ فإن على رأس

---

(١) رواه البخاري ومسلم ..

مائة سنة منها لا يبقى على ظهر الأرض ممن هو اليوم عليها ، أحد » (متفق عليه) .

وأما اجماع المحققين من العلماء ، فقد ذكر عن البخاري ، وعلي بن موسى الرضا : أن الخضر مات ..

وأما الدليل من العقول : فمن عشرة أوجه :

أحدها ، أن الذي أثبت حياته يقول إنه وَلَد آدم لصلبه ، وهذا فاسد لوجهين :

أولهما : أن يكون عمره الآن ستة آلاف سنة [1] ، فيما ذكر في كتاب يوحنا (الانجيل) ومثل هذا بعيد في العادات ان يقع في حق البشر .

والثاني : انه لو كان وَلَدَ آدم لصلبه ، أو الرابع من ولد ولده — كما زعموا — وأنه كان وزير ذي القرنين ، فإن خلقته تكون على غير خلقتنا ، بل يكون مفرطاً في الطول ، لما ثبت في الصحيحين من أن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم طوله ستون ذراعاً ، فلم يزل الخلق ينقص بعد » وما ذكر احد ممن زعم انه رأى الخضر ، انه رآه على خِلْقَةٍ عظيمة في الطول .

ومما ذكره ابن الجوزي من الأدلة العشرة على موت الخضر قوله :

« أن الخضر فارق موسى بن عمران كليم الرحمن ، وقال له : « هذا فراق بيني وبينك » (الكهف : ٧٨) فكيف يرضي لنفسه لمفارقته لمثل موسى ثم يجتمع بِجَهَلَة العِبَادِ الخارجين عن الشريعة ، الذين لا يحضرون

---

(١) هذا غير صحيح ، فان بيننا وبين آدم مئات الالوف من السنين ، كما ثبت ذلك من البحوث العلمية ، والعثور على اموات منذ مئات من السنين .

جَمْعةً ولا جماعة ، ولا مَجْلس علم ، ولا يعرفون شيئاً[1] ! ! »
وكل منهم يقول : قال الخضر ! ! فيا عجباً .. يفارق الخضر كليم الله تعالى ، ويبحث عن صحبة الجهال ، ومن لا يعرف كيف يتوضأ ، ولا كيف يصلي » ؟.

* * *

وبعد ، فان كل من يزعمون ـ قديماً أو حديثاً ـ أنهم رأو الخضر ، وتلقوا منه علماً ، هم كاذبون مفترون على الله ، ولو كان الخضر هكذا كما زعموا لكان صاحب رسالة قائمة في الحياة ، ممتدة على الزمن ، ولكان رسولاً الى الناس جميعاً في كل زمان ومكان ، ولما كان رسول الله ﷺ ، خاتم النبيين ، ولا رسولاً للعالمين ..

ثم إنه لو كان الخضر صاحب دعوة الى الخير والهدى في الناس ، فلَمَ لم يلتق برسول الله ﷺ ليكون ظهيراً له ، ولِمَ لم يلتق بأصحاب رسول الله ـ رضوان الله عليهم ؟

ومن جهة أخرى ، فإن الذين يدّعون أنهم التقوْا بالخضر ، إنما التقوا به ـ في زعمهم ـ منفردين لم يرهم أحد ، وهذا إما ان يكون عن كذب وافتراء منهم لخداع العامة ، بأنهم من أرباب الكرامات الذين يتعلمون من الخضر علماً لَدُنّياً ، مثل موسى عليه السلام .. وإما أن يكون ذلك من أوهام وخيالات يتمثل لهم فيها الشيطان في صورة شبح آدمي ، زاعماً أنه الخضر الذي تمتلىء خيالاتهم بتصورات مريضة له .

وقد كان « ابن عربي » ممن ادعى انه التقى بالخضر مرات ، وهذا ما

---

(١) يشير بهذا إلى جماعات من أدعياء التصوف والولاية ، الذين يزعمون انه قد سقطت عنهم التكاليف الشرعية ، وأنهم لا يتلقون العلم من ميت وانما يتلقونه من الحي الذي لا يموت .. وقد كذبوا وافتروا على الله .. وانظر في هذا كتابه « تلبيس ابليس » ..

شاع في أوساط العامة واشباه العامة ممن لبسوا ثوب التصوف ، فخيل اليهم انهم من أولياء الله ، الذين استمدوا ولايتهم لا من طاعة الله ، واخلاص العبادة له ، بل من بركات شيخهم الأكبر « ابن عربي » وانهم بهذه البركات قد أصبحوا أهلاً لأن يجتمعوا بالخضر كما اجتمع سيدهم وشيخهم الأكبر وما هذا إلا من فعل الشيطان بأوليائه ، والله تعالى يقول : « وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم » ويقول سبحانه : « إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون انهم مهتدون » ..

نسأل الله العافية ، ونعوذ به سبحانه من شياطين الجن [والإنس .. « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب » ..

صدق الله العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين » ..

تم بحمد الله هذا الكتاب من سلسلة « من قضايا القرآن » ويليه غيره إن شاء الله بعونه وتوفيقه ، بما يفتح الله تعالى لنا به ، ويعيننا عليه .

فهرست